ما القرار الأصوب في الفتنة الكبرى؟

بين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

المقدمة العامة ٣

الهدف من الدراسة: ٣

الجهود السابقة: () ٤

منهج الدراسة: ٥

قائمة المحتويات الأولية: ٧

نتائج الدراسة ٧

استشهاد الخليفة عثمان ٧

بدايات الفتنة: ٧

اجتماع الثوار على عثمان ٨

دعوة عبد الله بن سبأ ٩

مشاورات عثمان مع ولاته ٩

المواجهة الأولى سنة ٣٤ هـ ١٠

خروج الثوار إلى المدينة عام ٣٥ هـ ١١

مباغتة أهل الفتنة للمدينة ١١

كتابة عثمان إلى الأمصار (سيف، الفتنة ص ٦١-٦٣) ١٢

آخر خطبة لعثمان ١٢

حصار الخليفة ١٣

استشهاد الخليفة الراشد الثالث: ١٣

ما القرارات التي صنعت الحدث الأليم؟ ١٤

ما القرارات الأكثر صوابا في موقعة الجمل؟ ١٦

ظروف المبايعة لعلي رضي الله عنه: ١٦

الخليفة الرابع الراشد يمارس سلطاته: ١٦

الخليفة يرسل إلى أبي موسى ومعاوية: ١٧

إستئذان طلحة والزبير عليا في العمرة ١٧

وصول خبر استشهاد الخليفة إلى عائشة ١٨

أم المؤمنين في البصرة ١٩

قتال عائشة وعثمان بن حنيف: ٢٠

عودة القتال وانتصار عائشة () ٢١

توجه الخليفة الرابع إلى البصرة: ٢٢

موقف أبي موسى الأشعري ٢٣

نزول أمير المؤمنين علي ذي قار ٢٤

مساعي الإصلاح ٢٤

رؤوس الفتنة يفسدون الصلح ٢٥

نتائج موقعة الجمل: ٢٨

سيرة علي فيمن يقاتلهم ٢٨

خروج عائشة من البصرة إلى مكة ٢٨

القرارات التي أسهمت في إهدار دم آلاف المسلمين: ٢٨

ما هي القرارات الأكثر صوابا في صفين؟ ٢٩

عمرو بن العاص يؤيد معاوية في طلب دم عثمان: ٣٠

خروج علي بن أبي طالب إلى صفين ٣٠

القتال على الماء: ٣١
دعاء علي معاوية إلى الطاعة والجماعة ٣١
مقتل عمار بن ياسر ٣٤
رفع المصاحف والاحتكام إليها: ٣٥
خروج الحرورية على الخليفة: ٣٦
اجتماع الحكمين بدومة الجندل: ٣٦
مقتل بعض رؤوس الفتنة: ٣٩
تفريق معاوية جيوشه في أطراف علي: ٤١
محاولة معاوية السيطرة على المدينة ٤١
استشهاد الخليفة الراشد الرابع: ٤١
الخلاصة العامة: ٤٢

(مقتطف من مسودة كتاب منهج البحث التاريخي)

المقدمة العامة

كثر الحديث عن أحداث الفتنة التي وقعت بين بعض كبار أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم. ومن المعلوم أن بعض قرارات أصحاب القرار النهائي أسهمت بطريقة أو بأخرى في سفك دماء آلاف المسلمين، وليس دماء الكافرين المعادين. بيد أنا نؤمن ونجزم بأن القرارات الرئيسة للقيادات من الصحابة كانت ترتكز على قواعد شرعية ثابتة، ونثق في إخلاصهم للحق، وأنهم اجتهدوا في ترجيح الآراء الشرعية المتصادمة، والاجتهاد قد يخطئ ويصيب. فالخليفة الراشد الرابع كان يرى أن الأولوية لتوحيد كلمة المسلمين تحت رايته، والفِرق المعارضة كانت ترى الأولوية لتطبيق حد القصاص على المستحقين، عند توفر القدرة.

والصحابة عدول في رواية أخبار المصطفى، وحريصون على اتباع أوامر الله ورسوله الكريم، ولا سيما من كان في مستوى أصحاب القرارات النهائية في الفتنة. وأما القرارات التنفيذية للفِرق المعنية كلها هي اجتهادات بشرية، يُثاب عليها المخطئ والمصيب. فالعصمة لله وحده، وأما البشر فغير معصومين، وأسهمت أخطاؤهم، بدرجات متفاوتة، في المذبحة الكبرى للمسلمين.

ولعل أبلغ تعبير عن هذه الحقيقة ما قاله طلحة والزبير "إنا وهم، أي جماعة علي ابن أبي طالب، مسلمون. وهذا أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن أو يكون فيه من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سنة. إنما هو حدث جديد".([1])

فالخطأ في الاجتهاد طبيعي، فحتى الأنبياء الذين يتلقون الوحي والمعصومون في التبليغ عن ربهم، قد يقعون في بعضها. ولم يسلم منها خاتم النبيين وسيد المرسلين، ويكفي أن نقرأ سورة عبس وتولى، وأن نتذكر الموقع الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم، في غزوة بدر، وحكمه في الأسرى.([2]) والخطأ في الاجتهاد، بالنسبة للمسلم، ينتج عن أسباب، منها: ١) الخطأ في تقدير ما يحبه الله، أي الرأي الشرعي المرجح في الظرف المحدد، عند غياب النصوص الصريحة، ٢) الخطأ في تقدير الواقع، ٣) الخطأ في طريقة تنفيذ الرأي الشرعي واختيار الوسائل المستخدمة ، ٤) الخطأ في تصور النتائج المحتملة، ٥) القدرة على الموازنة بين المصالح المتضاربة.

وقد يعتقد البعض أن الموازنة بين المبادئ الثابتة والواقع المتغير نوع من التذبذب والنفاق، ولكن الحقيقة تقول بأن الموازنة، ما لم تكن على حساب مصلحة أكبر، هي نوع من الحكمة المطلوبة من أصحاب القرار في الشئون الخاصة، والعامة بصفة آكد. ولنا قدوة حسنة في رسول رب العالمين وقراره يوم صلح الحديبية، حيث تنازل لقريش الكافرة المعادية، بمنحها حق استرجاع من يسلم منهم ويفر إلى المدينة، دون اشتراط ذلك الحق للمسلمين.

الهدف من الدراسة:

الهدف العام من الدراسة هو الوصول إلى الصورة الأكثر تمثيلا لما جرى في الواقع بين أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، في صراع نتج عنه سفك دماء آلاف المسلمين. والهدف المحدد هو الوقوف على أكثر الآراء صوابا لأهل المشورة وقرارات أصحاب القرار من الصحابة أثناء أحداث الفتنة، بصرف النظر عن من صدرت عنه. وذلك لكي نستفيد منها، بالاسترشاد بها أو باجتنابها.

وبعبارة أخرى، فإن الهدف هو معرفة القرارات التي نتجت عنها الفتنة، وطريقة التعامل معها والتي أدت إلى سفك دماء آلاف المسلمين، وأيها أقرب إلى الصواب، وليس إصدار أحكام شرعية عليها، أو مجرد التعرف على ما حدث لغرض التسلية.

---

[1]) سيف، الفتنة ص ١٥٠.

[2]) أنظر سورة عبس؛ آل عمران: ١٢٨-١٢٩؛ سورة الأنفال: ٦٩؛ مسلم: الجهاد، الْإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ؛ وغزوة بدر سيرة ابن هشام مثلا.

الجهود السابقة: ([3])

إن المتأمل في الكتابات حول الفتنة الكبرى يجد محاولات مخلصة للدفاع عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، سواء عن مجموعهم أو عن بعضهم ممن عاصر الفتنة أو أُقحم فيها. ويلاحظ القارئ أن هناك تحيُّزات واضحة أو خفية للخليفة الراشد الرابع، وتخطئة للأطراف الأخرى في المنازعات، وتجاهل لبعض الحقائق الحاسمة، وأحيانا مبالغات في التبرئة، بإلقاء كل اللوم على الفئة المتمردة أو الباغية.

وأكدت عدد من الدراسات بأن ما حصل من خلاف بين كبار الصحابة، إنما هو من الاجتهاد الذي يثاب عليه المصيب والمخطئ. بيد أن البعض مال إلى تخطئة أم المؤمنين بحجة خطأ اجتهادها وطلحة والزبير، وتهمة معاوية بالطمع في الخلافة، بديلا لأمير المؤمنين علي. واحتجت بأن عليا كان مرشحا مع عثمان للخلافة، وأن البلاد بدون خليفة أو أمير لا يمكنها تطبيق الحدود، وأن توجه أم المؤمنين وطلحة والزبير إلى البصرة واستيلائهم عليها كان نوعا من الخروج على الإمام، يمزق الدولة الإسلامية. ولكن ذكر أحدهم بأنه "لم يكن الصحابة – رضي الله عنهم – في المدينة يؤيدون خروج أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، منها".

والسؤال: أليس الأصل أن نشخص الظروف الواقعية التي قررت فيها أم المؤمنين ومن معها توجهها إلى البصرة؟ وأليس الأصل أن نعرف سبب الاستيلاء على البصرة؟ وهل يُعتبر توجه أم المؤمنين ومن معها إليها للاقتصاص من قتلة عثمان اعتداءًا يستحق المبادرة بالهجوم عليهم، وإباحة دمائهم؟

واحتج البعض في تخطئة المرجحين للقصاص بأن الذين بايعوا عليًا رضي الله عنه، هم من أصحاب الحل والعقد، ومنهم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. ويعتذر أحدهم للخليفة الرابع أنه، رضي الله عنه، لم يكن قادراً على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان، لعدم علمه بأعيانهم، ولاختلاط هؤلاء الخوارج بجيشه، مع كثرتهم واستعدادهم للقتال.

والسؤال: هل عدم العلم بهم يكفي لتجاهل التحري عنهم ولمدة أربعة أشهر؟ وهل كان هناك احتمال للسيطرة على البغاة خلال تلك الفترة؟ وهل القضية قضية تأجيل القصاص فحسب؟ أو أنها قضية اقتران تأجيل القصاص للمستحقين بالاستعانة بهم لقتال المطالبين به؟

بل، ذهب أحدهم إلى القول بأن المطالبين بالقصاص جماعة خرجت على جماعة المسلمين، وإلى جواز الاستعانة بالمستحقين للقصاص لقتال المطالبين بالقصاص، وذلك استنادا إلى تجويز بعض العلماء الاستعانة بالكافرين لقتال كافرين آخرين مهاجمين للمسلمين.

والسؤال: هل المطالبون للقصاص يشبهون الكافرين المهاجمين للإسلام؟ وهل تجوز الاستعانة بالكافرين المعتدين على المطالبين بتطبيق حدود الله في الجريمة الثابتة عند جميع الأطراف؟

بيد أن البعض أكد بأن أم المؤمنين وطلحة والزبير كانوا لا يرفضون خلافة على ابن أبي طالب، إلا إذا حال بينهم وبين تطبيق القصاص، وقد عجز عنه هو. وأما معاوية بن أبي سفيان فكان مستعدا للمبايعة إذا تم تنفيذ القصاص في المستحقين له.

وينتقد البعض أم المؤمنين لأنها قامت بلعن قتلة عثمان، ولأنها حثّت على الصمود أمام المهاجمين لجيشها ومقاومتهم. والسؤال: أليس من واجب الباحث العاقل أن يتأكد من الظروف التي وقعت فيها هذه الأمور؟

وهناك توجُّه قوي بأن الفئة الباغية التي أثارت الفتنة وقتلت الخليفة الثالث هي التي أفسدت الصلح بين فريق الخليفة الرابع وأم المؤمنين وطلحة والزبير. ويؤكد البعض بأن مذبحة

---

[3]) انظر مثلا: تعليقات السامرائي عند تحقيق كتاب سيف، العمدة في هذه الأحداث؛ ملاحظات هارون عند تحقيق كتاب المنقرئ؛ ويمكن الرجوع إلى كثير منها بالاستعانة بمحرك قوقل، ومثاله: موقع إسلام وقصة الإسلام؛ وملتقى أهل الحديث؛ وشبكة الدفاع عن السنة...

الجمل لم تكن بتدبير أحد من الصحابة، وإنما أنشب الحرب قتلة عثمان، وأن الدماء التى سُفكت في وقعة الجمل كانت جريمة أخرى من جرائم قتلة عثمان، لا يلحق منها شئ بعلي ولا بعائشة أو طلحة أو الزبير.

والسؤال: هل هؤلاء القادة كانوا مثل حجارة الشطرنج يلعب بهم رؤوس الفتنة وأتباعهم كما يشاؤون؟ حاشاهم أن يكونوا كذلك.

وهناك من دفع عن معاوية تهمة الفئة الباغية التي وردت في حديث عمار تقتله الفئة الباغية، لأنه كان مع عليٍّ، فيؤكد بأن صفة الفئة الباغية لا تنطبق إلا على الفئة التي قتلت خليفة المسلمين الثالث، ولم يكن عندها مانع في قتل الخليفة الرابع لكي تنجو من العقوبة، ولهذا أفسدت الصلح.

وفنّد البعض "أحاديث" ماء الحوأب، وأن الزبير سيقاتل عليا وهو ظالم له، وذلك بتقديم التفسيرات المناسبة، والتأكيد على عدم ثبوت هذا الحديث.

وجميع ما سبق دراسات مشكورة، ولكنها لا توضح بدقة كافية أسباب موقعتي الجمل وصفين حتى نجتهد في تجنبها.

وأما من الناحية المنهجية فقد خلط البعض بين منهج المحدثين الذي يرتكز على نقد السند أكثر، ومنهج المؤرخين الذي يستند إلى نقد المتن أكثر، وطبقوا معايير الثقة في المحدث على المؤرخ. فهل هذا مناسب؟

وهناك من خلط بين فضائل الصحابة وعدالة الراوي، من جهة، وأدوارهم في الفتنة، أي افترضوا بأن ثبوت الفضائل العظيمة والعدالة فيهم تعصمهم من الأخطاء في القرارات التنفيذية. فهل هذا صحيح؟

وطعن أحدهم في مصداقية قصص سيف، باستعمال منهج المحدثين، وبضرب مثال لاختلاف رواية سيف عن رواية غيره، تتعلق بالوفد المصري،على افتراض أنها لحادثة واحدة. وبالرجوع إلى ابن عمر الأسدي والطبري اتضح أن القصتين لحادثتين مختلفتين: فالرواية التي تختلف عن رواية سيف كانت عن اللقاء الأول الذي أظهروا فيه القناعة برأي الخليفة وتظاهروا بالعودة إلى مصر. وأما رواية سيف فكانت عن اللقاء الثاني الذي عاد فيه المصريون إلى المدينة مع وفد البصرة والكوفة، بمؤامرة دبروها معا في المدينة قبل مغادرتهم.

منهج الدراسة:

يتمثل منهج الدراسة في النقاط التالية:

١. الاعتماد على أكثر المصادر قربا من تلك الأحداث ، مثل روايات سيف التي هي الأقرب بالنسبة لأحداث استشهاد الخليفة عثمان، وموقعة الجمل. ومثالها روايات أبو مخنف التي اعتمد عليها الطبري في الحديث عن أحداث صفين، وكذلك روايات المنقري، وإن كان الاثنان من المعروفين بالتشيع لعلي ابن أبي طالب، بدرجات متفاوتة من التطرف. والملاحظ أن روايات سيف تتمتع بدرجة من الحياد عالية، تنصف الخليفة عثمان، والخليفة الرابع وأم المؤمنين وطلحة، والزبير، ومعاوية، رضي الله عنهم أجمعين. فهي تثبت ما لهم وما عليهم.

وأما عملية تعميم جرح المحدثين على رواة الأحداث التاريخية ففيه نظر. فالأصل أن تعديل المحدثين وجرحهم خاص بنصوص السنة التي يرويها المحدث، وقد يثبت بعضها المؤرخ ضمن القصص التاريخية التي يرويها. فهو مؤرخ، يجمع ما يقع في يده، وليس محدثا، من مسئولياته التحقق من النصوص المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ولهذا يجب أن لا نخلط بين منهج توثيق المحدثين، الخاص بتوثيق النصوص، الذي يستند إلى نقد السند بشكل

رئيس، وبين منهج المؤرخين الذي يستند إلى نقد المتن بشكل رئيس. فالأحاديث النبوية، لها قدسية خاصة، تستوجب متابعة المعاصرين للحدث بحرص، وتفرض الرواية بعناية فائقة، لأنها تعاليم ربانية يجب اتباعها والعمل بها. فالنصوص المقدسة تختلف عن القصص التاريخية غير المقدسة من حيث الطبيعة، لهذا نجد المحدث يوليها عناية خاصة، فقد يُضعِّف نصا، ويُوثِّق آخر، مع تطابقهما في المعنى العام. وأما الأحداث التاريخية فلا تحظى بتلك القدسية أو تفرض تلك العناية.([٤]) ولهذا فإن أقصى ما نطلبه في القصص التاريخية هو توفر الحيادية عند الحديث عن الأطراف المتصارعة، وتناسق القصة التفصيلية مع الأحداث الرئيسة ذات العلاقة والسمات العامة للشخصيات الرئيسة. ويضاف إليها خلوها النسبي من المبالغة في السلبيات أو في الإيجابيات، ومن المقاطع الأدبية والصياغات المنمقة والمُصنّعة. وهي مسائل ثانوية، يمكن معالجتها بالتجاهل أو بالتعديل، حسب قواعد واضحة. ولعل أفضل وصف لسيف هو قول ابن حجر العسقلاني: "ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ".

وبعبارة أخرى، فإن جرح المحدثين لرواة القصص التاريخية لا تطعن في القصص التاريخية التي يجمعونها في مجلد واحد، إذا توفّرت فيها الحيادية والتناسق في الأحداث، وخلت نسبيا من المبالغات الشديدة.

وصحيح أن هناك علاقة طردية نسبية بين درجة الفضل أو درجة العدالة والخطأ في الاجتهاد أو في الالتزام بتعاليم الإسلام، ولكن لا تصل بأي حال إلى درجة تعصم صاحب أعلى فضل أو تعديل من الوقوع في الأخطاء الاجتهادية أو السلوكية. فالأنبياء قد يخطئون في الاجتهاد، وعلماء الحديث يُعدِّلون المسلم، وإن وقع في أخطاء اجتهادية جسيمة ونتائجها السلبية عظيمة. فمركز عنايتهم هو احتمال الكذب على النبي، صلى الله عليه وسلم، أو تحريف سنته عند نقلها إلى الأجيال المتعاقبة، متعمدا أو بغير قصد، بسبب ضعف الذاكرة، مثلا.

٢. الاستفادة من المصادر الثانوية الأخرى، عند وجود إضافة لم ترد في المراجع الأساسية، أو إضافة ذات أهمية في تفسير الأحداث أو تحليلها.

٣. استبعاد الأحاديث النبوية التي تدور حول فضل أحد المتصارعين. وكذلك استبعاد تعديل المحدثين أو جرحهم للشخصيات الرئيسة التي شاركت في الحوادث المروعة. فما يهمنا هو ما قالته الشخصية القيادية أو فعلته، فأسهم في وقوع الكارثة العظمى التي أدت إلى إباحة أرواح آلاف المسلمين. فالفضائل الموهوبة من الله أو الموروثة أو المكتسبة لا تعصم المسلم من الأخطاء الاجتهادية.

٤. اشتراط القطعية في الثبوت وفي الدلالة في الأحاديث النبوية التي ترجح صواب قرار ضد قرار آخر. فمن المعلوم أن التنبؤات النبوية هي من الغيبيات، وينبغي عدم الإيمان بأي نص فيها، لا يوفر الشرطين المطلوبين، ولاسيما إذا كُنّا سنحتكم إليها للجزم بخطأ أحد الطرفين. فمثلا من الصفات المميزة لبعض الفرق الإسلامية، أنها جريئة في وضع الأحاديث النبوية والقصص التي تسند مواقفها. وهذا التوجه في صورته المخففة طبيعة بشرية، ولهذا لا تُقبل شهادة المحب أو المبغض. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا ذي غمر(ذي حقد وشحناء) على أخيه، ولا تجوز شهادة القانع (مثل الخادم المتحيِّز) لأهل البيت."([٥])

٥. تحديد الفئات المتصارعة، سرا أو جهرا، والتركيز على مساهماتها والتعريف بمكوناتها وسماتها العامة، وسمات أبرز أفرادها.

([٤]) صيني، قواعد أساسية، ط٢ ص ٩٥-١٠٣.

([٥]) الصنعاني، ج٤: ٢٥٦-٢٨٥ للحديث والحكم المبني عليه من زاوية أحمد وأبو داوود.

٦. عرض التصريحات، والقرارات، أو الأفعال التي قامت بها كل فئة منها لتخدم رأيها وقناعتها.
٧. عقد مقارنة ثنائية أو جماعية بين آراء الفئات المتصارعة، وبين تصريحاتها، وبين قراراتها الفعلية أو المحتملة ، وطرح التساؤلات اللازمة للخروج بالرأي أو القرار الأصوب بالنسبة للقرارات المتعارضة أو المتصادمة، وذلك للاسترشاد بها في الحالات والمواقف المشابهة.
٨. تقسيم أحداث الفتنة إلى مراحل: استشهاد الخليفة عثمان، موقعة الجمل، موقعة صفين. وسيتم تناول النقاط التالية في كل مرحلة: الأحداث التي جرت، الأطراف التي أسهمت في الحدث، وقياداتها، وأهدافها الرئيسة، والقرارات التي اتخذتها، والوسائل التنفيذية التي استعانت بها. ثم محاولة التعرف على الآراء والقرارات الأقرب إلى الصواب لتجنب الأحداث المروعة التي حدثت، بتحكيم العقل النزيه.

قائمة المحتويات الأولية:

استشهاد الخليفة عثمان.
موقعة الجمل.
موقعة صفين.

نتائج الدراسة

استشهاد الخليفة عثمان

ينبه الباحث بأن البحث يقتصر على الوصول إلى القرار الأصوب من القرارات الاجتهادية التي يثاب عليها صاحبها، إن أخطأ أو أصاب، وذلك بصرف النظر عن مكانة صاحبها عند الله ورسوله، وعند المسلمين.

بدايات الفتنة:

جلس سعيد ابن العاص، والي الخليفة عثمان على الكوفة للناس فقال عبد الرحمن ابن خنيس، وهو حدث، والله لوددت أن ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة هو لك. فقال البعض فض الله فاك، إنه يتمنى له سوادنا، أي مناطقنا الزراعية. فقال ابن العاص ويتمنى لكم أضعافه. قالوا: لا يتمنى لنا ولا له. وثار إليه الأشتر وبعض الأشقياء، فأخذوه. فذهب أبوه ليمنعه فضربوهما حتى غشي عليهما. وجعل سعيد يناشدهم ويأبون، فسمعت بذلك بنوا أسد فجاءوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقصر، وركبت القبائل. فعاذ المشاغبون بسعيد وقالوا أفلتنا وخلِّصنا. فخرج سعيد إلى الناس وهدأ الأمر، وطلب من هؤلاء الأشقياء عدم حضور مجلسه.([٦])

وكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم، فكتب: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية. وكان عثمان قد كتب إلى معاوية إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرا خُلقوا للفتنة فأخِفهم، وقم عليهم. فإن آنست منهم رشدا فأقبل منهم. فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم دارا، وأجرى عليهم، بأمر عثمان، ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل يتغدى ويتعشى معهم. وبذل الجهد في نصحهم، ومناقشتهم بشيء من الحزم وبيان فضل

[٦]) سيف، الفتنة ص٣٥- ٣٦.

الإسلام عليهم وفضل قريش، ولكنهم كانوا يظهرون المكابرة والعنت. فتركهم فترة فلاحظ معاوية أنهم يشهدون الصلاة، ودخل عليهم يوما وبعضهم يقرئ بعضهم القرآن، فقال إني قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم. ووبخهم وقال لهم إن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليسعكم ما وسع الناس، ولا يبطرنكم الإنعام. فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم. وكتب معاوية إلى عثمان إنه قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة.

وخرج القوم من دمشق فقالوا: لا ترجعوا إلى الكوفة فإنهم يشمتون بكم وميلوا بنا إلى الجزيرة، ودعوا العراق والشام، فأووا إلى الجزيرة. وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان معاوية قد ولاه حمص، فدعا بهم، وأنّبهم. وسرّح الأشتر إلى عثمان. وخرج الأشتر فأتى عثمان بالتوبة والندم. فقال عثمان للأشتر أحلل حيث شئت. فقال مع عبد الرحمن بن خالد وذكر من فضله. فقال ذاك إليكم فرجع إلى عبد الرحمن.([٧])

واشتكى أهل الذمة من حكيم ابن جبلة الذي كان إذا رجعت جيوش المسلمين تأخر عنها يغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء، ثم يرجع. فشكاه اهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى واليه في البصرة، عبد الله بن عامر، أن أحبسه ومن كان مثله لا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشدا. فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها. فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع نفر إليه، فطرح عليهم ابن السوداء اليهودي الذي أظهر الإسلام ويريد التفريق بين المسلمين، فكرة تقديس علي، وتعاطف معه حمران بن أبان الذي تزوج امرأة في عدتها وفرق بينهما وضربه وسيره الخليفة إلى البصرة. فاستغل الفرصة للانتقام وسعى مع آخرين بعامر بن عبد قيس الذي كان واليا لعثمان على البصرة بتهم منها: أن عامر بن قيس لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة.([٨])

اجتماع الثوار على عثمان

خلت الكوفة من الرؤساء إلا منزوعا من الرئاسة أو مفتونا، فخرج يزيد بن قيس وهو يريد خلع الخليفة عثمان، فدخل المسجد فجلس فيه، وثاب إليه اللذين كان فيهم ابن السوداء يكاتبهم فعارضه القعقاع. فرجع يزيد بن قيس إلى بيته واستأجر رجلا وأعطاه دراهم وبغلا على أن يأتي مجموعة الأشقياء الذين منهم الأشتر، وكتب إليهم لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، فإن أهل المصر معنا على خلع عثمان. ومن ناحية أخرى، ظهر الأشتر في يوم جمعة، على باب المسجد، يحرض على سعيد ابن العاص، والي عثمان على الكوفة، بالكذب عليه، وأنه يحرض الخليفة عثمان على إنقاص مخصصاتهم. ([٩])

فخرج يزيد وأمر مناديا ينادي من شاء أن يلحق بيزيد بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل وبقي حلماء الناس وأشرافهم ووجوههم في المسجد وذهب من سواهم. وخرج يزيد بن قيس حتى نزل الجرعة ومعه الأشتر، وقد كان سعيد تأخر في الطريق، فلما طلع عليهم وجدهم معسكرين يتربصونه. فقالوا: لا حاجة لنا بك. فقال لماذا اختلفتم الآن؟ إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلا، ثم انصرف عنهم راجعا إلى المدينة، وقال لهم مولى لسعيد: والله ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع، فضرب الأشتر عنقه. ومضى سعيد حتى قدم على عثمان فأخبره الخبر فقال: ما يريدون؟ أخلعوا يدا من طاعة؟ قال: أظهروا أنهم يريدون البدل. قال فمن

---

[٧]) سيف، الفتنة ص ٣٧- ٤١.
[٨]) سيف، الفتنة ص ٤١-٤٣.
[٩]) سيف، الفتنة ص ٤٥.

يريدون؟ قال أبا موسى قال أثبتنا أبا موسى عليهم؛ ووالله لا نجعل لأحد عذرا، ولا نترك لهم حجة. وكتب لهم ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئا أحببتموه، لا يُعصى الله فيه، إلا سألتموه ولا شيئا كرهتموه، لا يعصى الله فيه، إلا استعفيتم منه وأنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليّ حجة. ([١٠])

دعوة عبد الله بن سبأ

كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء فيلقب بابن السوداء، فأسلم أو تظاهر بالإسلام زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد. وأخرجه أهل الشام فتوجه إلى مصر. فاستقر عندهم وقال لهم فيما يقول: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويُكذِّب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد}. ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان هناك ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان عليّ وصى محمد. ثم قال: محمد خاتم الانبياء، وعليٌ خاتم الأوصياء. ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يُجِز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر الأمة؟ (أي أن أبا بكر وعمر حرَما عليّا الخلافة). ثم قال لهم بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق؛ وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر. فبث دعاته وكاتب من كان استُفسد من الأمصار، وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك. ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة. وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون. فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء إلا أهل المدينة. فوصل الخليفة الثالث الخبر بما شاع، فأرسل من يتحقق عن الأوضاع، فوصله أن أمراءه يقسطون، ويقومون بما عليهم. وكان الخليفة قد أرسل عمارا ليتحقق من الوضع في مصر، فاستماله قوم بمصر، منهم عبد الله بن السوداء.([١١])

مشاورات عثمان مع ولاته

كتب عثمان إلى أهل الأمصار أما بعد فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته. وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إليّ أهل المدينة أن أقواما يُشتمون وآخرون يُضربون. فيا من ضُرب سرا وشُتم سرا، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه، حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين.([١٢])

---

[١٠]) سيف، الفتنة ٤٦- ٤٧.
[١١]) سيف، الفتنة ص ٤٧- ٤٩.
[١٢]) سيف، الفتنة ص ٥٠-٥١.

المواجهة الأولى سنة ٣٤ هـ

كاتب أهل مصر أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة وجميع من أجابهم أن يثوروا على أمرائهم واتفقوا على يوم محدد. فلم يستجب لهم إلا أهل الكوفة. فإن يزيد بن قيس الأرحبي ثار فيها واجتمع إليه أصحابه.

ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج إلى الأمصار وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس. فعندما علم الخليفة بذلك طلب من اثنين التأكد مما يريدون. فقالوا نريد أن نسأله عن أشياء، وهددوا الخليفة بخلعه أو قتله، إذا رفض التنازل عن الخلافة. فأمر الخليفة الراشد بالنداء ليجتمع الناس، وليسُنّ سنة جريئة في العدالة بين الحاكم والمحكوم، فوقف موقف المتهم ليناقش المحكومين فيما اتهموه به. فقال إن هؤلاء:

١ - قالوا أتم الصلاة في السفر، أي أنه أتم أثناء الحج في مكة، وكانت لا تتم. ألا وإني قدمت بلدا فيه أهلي فأتممت، أليس كذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

٢ - قالوا وحميت حمى، وإني والله ما حميت إلا اقتداء بمن قبلي لصدقات المسلمين يحمونها. فعمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة، فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة. وما لي من بعير غير راحلتين وما لي ثاغية ولا راغية. وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرا وشاة، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّي أ كذلك؟ قالوا اللهم نعم. وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي. ([١٣])

٣. وقالوا كان القرآن كتبا فتركتها إلا واحدا. ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك؟ قالوا نعم. وهنا يشير إلى أن أبا بكر بمشورة عمر جمعا القرآن في مجلد واحد. وما فعله هو توحيد الآيات المقروءة لظهور الخلاف على بعض الآيات بين بعض المسلمين.

٤. وقالوا إني رددت الحَكَم وقد سيّره، أي نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف. سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رده. أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

٥. وقالوا استعملت الأحداث. ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا. وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده. ولقد وُلّى من قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لي، في استعماله أسامة. أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

٦. وقالوا إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مائة ألف وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذاك لهم أكذلك؟ قالوا: نعم.

٧. وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم. فأما حبي فإنه لم ينتج عنه جور على أحد، بل أحملهم ما عليهم من الحقوق. وأما إعطاؤهم فإني ما أعطيهم إلا من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذ شحيح حريص. أفحين فني عمري وودعت الذي لي في أهلي؟ وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا. ولقد رددته عليهم، وما قدم عليّ إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء.([١٤])

٨ - قالوا أعطيت الأرض رجالا، وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك.

---

[١٣]) سيف، الفتنة ص ٤٥-٥٦، فضائل الصحابة لابن حنبل جزء ١ صفحة ٤٧٠.

[١٤]) سيف، الفتنة ٥٦.

فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم، بأمرهم، من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني.

وفي رواية عند الطبري بأن وفد مصر التقوا بالخليفة عثمان خارج المدينة، وتناقشوا معه، وأقبلوا معه إلى المدينة راضين. فمدحهم قائلا: إني ما رأيت والله وفدا في الأرض هم خير لحوباتي (عثراتي) من هذا الوفد.([١٥])

ومع هذه الأدلة الدامغة لبراءته من التهم، وفي حضور كبار الصحابة، تآمر البغاة، وتواعدوا على الاجتماع في ضواحي المدينة، ثم هجموا على المدينة على غرة من أهلها، وحاصروا الخليفة. في شوال سنة خمس وثلاثين.

خروج الثوار إلى المدينة عام ٣٥ هـ

لما كان شوال سنة خمس وثلاثين خرج البغاة من مصر والكوفة والبصرة، متجهين إلى المدينة، متظاهرين بأنهم حجاج. وكان مجموع عددهم يتراوح بين الألف ومائتين وثلاثة آلاف.

وكان على أهل مصر أربعة أمراء: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان ابن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني. وعليهم جميعا الغافقي ابن حرب العكي، وكان معهم ابن السوداء وخرج أهل الكوفة ومن قياداتهم: زيد بن صوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الاصم أحد بني عامر بن صعصعة؛ وعليهم جميعا عمرو بن الأصم. وخرج أهل البصرة وقياداتهم: حكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش بن عبد بن عمرو الحنفي، وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدي. وكان أهل مصر يريدون عليا للخلافة وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يريدون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يريدون الزبير.

فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على بعد، فقال زياد بن النضر وعبد الله ابن الأصم لا تعجلوا حتى نعرف أخبار أهل المدينة. هل هم مستعدون لنا، أو أنهم لا يعلمون بهدفنا. فدخلا المدينة ولقيا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعليا وطلحة والزبير، وقالا: إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك. وعرض المصريون على علي الخلافة، بدلا من عثمان، وعرض البصريون الاقتراح نفسه على طلحة، والكوفيون على الزبير. فرفض الثلاثة وقالوا لهم لقد علم الصالحون ان جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فارجعوا. فانصرفوا من عندهم على ذلك.([١٦])

مباغتة أهل الفتنة للمدينة

فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة فنزلوا في مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان، وقالوا: من كف يده فهو آمن. وصلى عثمان بالناس أياما ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا أحدا من كلام، فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي فقال ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا. وقال الكوفيون والبصريون فنحن ننصر إخواننا، ونمنعهم جميعا كأنما كانوا على ميعاد. فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل؟ هذا والله أمر أبرِم بالمدينة. قالوا فضعوه على ما شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا. وهو في ذلك

---

[١٥]) الطبري، تاريخ ج٢: ٦٥٥.

[١٦]) سيف، الفتنة ص٥٧- ٥٩.

يصلي بهم وهم يصلون خلفه ويغشى من شاء عثمان، وكانوا لا يمنعون أحدا من الكلام وكانوا زمرا بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع. ([١٧])

كتابة عثمان إلى الأمصار (سيف، الفتنة ص ٦١-٦٣)

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم، ويقول في رسالته: لقد أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم، ومن الناس عليٌّ، على غير طلب مني ولا محبة للخلافة، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون، مقتديا غير متكلف. ومضت الأمور على مايرام ثم بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة، وعابوا عليّ أشياء مما كانوا يرضون فصبرت لهم نفسي، وكففتها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع. فازدادوا على الله عز وجل جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب. فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق. فأتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول.

ولما جاءت الجمعة، التي على إثر نزول المصريين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء العدى. الله الله فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم. فامحوا الخطايا بالصواب. فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن. فقام محمد بن مسلمة فقال أنا اشهد بذلك. فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده. ثم احتدم النقاش بين الطغاة والمدافعين عن الخليفة، فحصب الغزاة الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع على المنبر مغشيا عليه. وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر: محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر. وشمّر البعض ليدافعوا عن الخليفة، منهم: سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن علي. فبعث إليهم عثمان بعزمه أن ينصرفوا فانصرفوا.

وفي رواية أخرى لسيف، صلى عثمان بالناس بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوما ثم أنهم منعوه الصلاة فصلى بالناس أميرهم الغافقي فدان له المصريون والكوفيون والبصريون. وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم، لا يخرج أحد ولا يجلس إلا وعليه سيفه، يمتنع به من رهق القوم. وكان الحصار أربعين يوما، وفيهن كان القتل ومن تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح.([١٨])

آخر خطبة لعثمان

وكانت آخر خطبة خطبها عثمان رضي الله عنه في جماعة قال فيها: إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطكموها لتركنوا إليها. إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية.([١٩])

وكان آخر كلامه للناس: يا أهل المدينة إني أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي وإني والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله في قضاءه. ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئا يتخذونه عليكم دخلا في دين الله أو دنيا حتى يكون الله عز وجل الصانع في ذلك ما أحب. وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم. فرجعوا إلا الحسن ومحمدا وابن الزبير وأشباها لهم، فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم واجتمع إليهم ناس كثير، ولزم عثمان الدار.([٢٠])

---

[١٧]) سيف، الفتنة ص ٦٠-٦١.
[١٨]) سيف، الفتنة ص ٦٤.
[١٩]) سيف، الفتنة ص ٦٤.
[٢٠]) سيف، الفتنة ص ٦٥.

حصار الخليفة

دام الحصر على أمير المؤمنين، عثمان، أربعين ليلة ونزول الغزاة في المدينة سبعين ليلة. فلما مضت من الأربعين ثماني عشرة جاء الركبان بخبر قدوم المدافعين عن الخليفة من الآفاق. فعندها قام الطغاة بمنع الناس عن الخليفة، ومنعوه كل شيء حتى الماء. وقد كان يدخل عليٌّ بالشيء مما يريد حتى منعوه. وجاءت أم حبيبة على بغلة لها فضرب الأشتر وجه بغلتها فكادت تسقط. وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تُقتل. وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج. وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليٌّ وأم حبيبة فلزموا بيوتهم، وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات، عليهم الرقباء. فأشرف عثمان على الناس فقال: يا عبد الله بن عباس، فدُعي له. فقال: اذهب، فأنت على الموسم، وكان ممن لزم الباب، فقال: والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إلي من الحج. فأقسم عليه لينطلقن، فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة. ([٢١])

فلما علم البغاة بأن الناس يستنكرون عملهم قالوا لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا. فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم واجتلدوا، (تصارعوا). فناداهم عثمان: الله. الله. أنتم في حِلٍ من نصرتي، فأبوا. ففتح الباب وخرج ومعه الترس والسيف لينهاهم. فلما رأوه أدبر المصريون وأتباعهم، وتراجعوا. وأقسم الخليفة على الصحابة ليدخلن. فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين. فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون على الدخول، جاؤوا بنار فأحرقوا الباب والسقيفة، فتأجج الباب والسقيفة حتى إذا إحترق الخشب خرت السقيفة على الباب. فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم الدخول، وكان من برز لهم المغيرة بن الأخنس، ومحمد بن طلحة، وسعيد ابن العاص. وكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير وأمره عثمان أن يصير إلى أبيه في وصية بما أراد وأمره أن يأتي أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم. وأقبل أبو هريرة والناس محجمون عن الدار إلا أولئك العصبة فاستقتلوا فقام معهم.

واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ولا يشعر الذين بالباب. فندب الطغاة رجلا لقتله. فانتدب له رجل فدخل عليه البيت وقال له: اخلعها وندعك. فقال ويحك لست خالعا قميصا كسانيه الله عز وجل، وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء. ([٢٢])

استشهاد الخليفة الراشد الثالث:

فخرج الباغي الذي دخل على الخليفة وقال علقنا والله. والله ما ينجينا من الناس إلا قتله وما يحل لنا قتله. فأقبل عبد الله بن سلام ينهاهم عن قتله وقال يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم. فو الله إن سللتموه لا تغمدوه. فشتموه. وكان آخر من دخل عليه محمد بن أبي بكر فقال له عثمان ويلك أعلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم إلا حقه أخذته منك؟([٢٣]) فنكل ورجع. فلما خرج محمد بن أبي بكر وعرفوا **إنكساره ثار قتيرة وسودان ابن حمران السكونيان والغافقي فضربه الغافقي بحديدة معه.** وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف فاستقر بين يديه وسالت عليه الدماء. وجاء سودان بن حمران ليضربه فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة واتقت (سيف، الفتنة

---

[٢١]) سيف، الفتنة ٦٥-٦٧.

[٢٢]) سيف، الفتنة ص ٦٨- ٧١.

[٢٣]) إذا صدقت هذه العبارة فإنها تدل على أن محمد ابن أبي بكر ارتكب إثما يستحق عليه العقوبة شرعا.

ص ٧٢) السيف بيدها فتعمدها وقطع أصابعها، وولت فغمز أوراكها وقال إنها لكبيرة العجيرة. وضرب عثمان فقتله ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه **فلما رأوا سودان قد ضربه** أهوى له بعضهم فضرب عنقه فقتله. فوثب قتيرة على الغلام فقتله. فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله. ودار القوم في البيت فأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء. ووصل الخبر إلى الزبير، وطلحة، فقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. رحم الله عثمان، وانتصر له. ووصل الخبر إلى عليّ فقال: رحم الله عثمان، وخلف علينا بخير.([٢٤])

وفي رواية، دخل محمد بن أبي بكر على عثمان فأخذ بلحيته فقال أرسل لحيتي فلم يكن أبوك ليتناولها فأرسلها. ودخلوا عليه فمنهم من يجؤه بنصل سيفه، وآخر يلكزه. وجاءه رجل بمشاقص معه فوجأه في ترقوته فسال الدم على المصحف. وغشي عليه. ودخل آخرون فلما رأوه مغشيا عليه جروا برجله فصاحت نائلة وبناته. وجاء التجيبي مخترطا سيفه ليضعه في بطنه فوقته نائلة فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه في صدره وقتل عثمان رضي الله عنه قبل غروب الشمس. ([٢٥])

وفي رواية ثالثة، تقدم محمد بن أبي بكر المجموعة التي قتلته، وأخذ بلحية عثمان وقال: قد أخزاك الله يا نعثل. فقال عثمان لست بنعثل ولكن عبد الله وأمير المؤمنين. فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان. فقال عثمان: يا بن أخي دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه. فقال **محمد ما أريد بك أشدَّ من قبضي على لحيتك، ثم طعن جبينه بمشقص في يده**. ورفع كنانة بن بشر بن عتاب مشاقص فوَجأ بها في أصل أذن عثمان، فمضت حتى دخلت في حلقه ثم علاه بالسيف حتى قتله. ويقول ابن أبي عون: **ضرب كنانة بن بشر جبينه** ومقدم رأسه بعمود حديد فخر لجنبه، وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله. **وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره** وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال: أما ثلاث منهن فإني طعنتهن لله وأما ست فإني طعنت إياهن لما كان في صدري عليه.([٢٦])

مما سبق يتضح أن حادثة قتل الخليفة الراشد الثالث ظلما وعدوانا كانت في منتهى الوحشية. يندى لها جبين التاريخ الإسلامي. فما هي العناصر البشرية التي كانت موجودة وأسهمت في صناعتها بدرجات متفاوتة؟

ما القرارات التي صنعت الحدث الأليم؟

من المؤكد أن الفئة الباغية هي الفئة الرئيسة التي صنعت الحدث المروع، وكان لها قرارها المعلن، وهو أن يخلع الخليفة نفسه، بدون مبرر، أو القتل. ولكن هناك قرارات أخرى، كانت لها بصماتها في صناعة الحدث، وإن لم تكن مقصودة. ويمكن الخلوص من استقراء الحوادث التي وقعت أن قرارات المسلمين، انقسمت إلى ثلاث قرارات: ١) قرار الفئة الباغية ومساندیها، ٢) قرار الفرقة التي حاولت الدفاع عن الخليفة، ٣) قرار الفرقة التي كان موقفها حيادي أو سلبي. ثم كان قرار الخليفة الراشد في ظل تلك الظروف.

قرار الفئة الباغية ومساندیها:

لقد كانت هذه الفئة باتحادها واجتماعها على رأي واحد ظاهرة القوة، وتسيطر على الأوضاع في المدينة، بدليل أنهم يحصبون المسلمين وخليفة المسلمين فلا تظهر مقاومة جماعية، ولكن فردية. وتتكون أبرز شخصيات هذه المجموعة من رؤسائها الذين قدموا من

---

[٢٤]) سيف، الفتنة ص٧٣- ٧٤.
[٢٥]) سيف، الفتنة ص ٧٥.
[٢٦]) الطبقات ج٣: ٧٣- ٧٤؛ ابن أبي شيبة، مصنف ج٧: ٥١٤.

مصر، والبصرة والكوفة، ومن بعض أهل المدينة. وكان من أبرزهم الذين استعان بهم الخليفة الراشد الرابع بعد مبايعته: مالك الأشتر النخعي، ومحمد ابن أبي بكر، ومحمد ابن حذيفة، وعمار ابن ياسر.

فمالك الأشتر كان من الذين بدؤوا الفتنة في الكوفة ضد والي الخليفة عثمان، فتعرض للتوبيخ، ثم كان من الثوار الذين قدموا إلى المدينة لعزل الخليفة عثمان، وكان من المنفذين للحصار على الخليفة، وإن كان بتهديد وإهانة أم المؤمنين أم حبيبة التي حاولت إيصال شيء من الماء إلي الخليفة المحاصر.([٢٧])

وأما محمد ابن أبي بكر فيبدو أن الخليفة طبق فيه عقوبة شرعية فحقد عليه. فقد كان أحد الذين أثبتت روايتان أنه من الذين أهانوا خليفة المسلمين أو باشروا عملية قتله بطريقة وحشية، مع آخرين من البغاة.

وأما محمد ابن حذيفة فقد كان من الحاقدين على الخليفة، لأنه لم يكلِّفه بأي ولاية لمعرفته بقدراته. فكان من المحرضين على الخليفة في مصر، رغم إحسان الخليفة إليه برعايته يتيما.

وأما عمار ابن ياسر فكان من الذين حقدوا على الخليفة لأنه أمر بتعزيره هو وعتبة لأنهما تقاذفا في خصومة بينهما، فكان الثوار المصريون يراسلون عمارا في خلع الخليفة هو ومحمد أبن أبي بكر، ومحمد ابن حذيفة.

قرار بقية أهل المدينة ومنهم الصحابة:

لقد كان موقف أهل المدينة ضعيفا أمام طغيان الفئة الباغية التي هاجمت المدينة والخليفة، فانقسموا إلى فرق:

أولا – الأفراد الذين حاولوا الدفاع عن الخليفة الراشد الثالث، وكان عددهم محدودا. وكان من الذين حاولوا الدفاع عن الخليفة: عبد الله ابن عباس، وأبو هريرة، وسعد بن مالك، وزيد بن ثابت، والحسن بن علي، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص فبعث إليهم عثمان يأمرهم ويعزم عليهم أن ينصرفوا.([٢٨]) ورأت هذه الأقلية وجوب الدفاع عن الخليفة والنظام.

ثانيا - الفرقة التي كان موقفها حيادي أو سلبي، وتمثل هذه الفئة الأغلبية العظمى من أهل المدينة. ولعل من أسباب هذا الموقف هو أن عدد المهاجمين للمدينة كان بين الألف ومائتين إلى الثلاثة آلاف وكلمتهم واحدة، وغزوا المدينة على حين غرة من سكانها، وحاصروا الخليفة.([٢٩]) ووجدت الأغلبية نفسها في موقف محايد أو سلبي.

والسؤال: أي قرارات أهل المدينة كان أقرب إلى الصواب؟

قرار الخليفة الراشد عثمان:

عندما رأى الخليفة الموقف السلبي السائد، تجاه حماية النظام الذي وحدّ المسلمين، في عهد أبي بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، واثني عشر عاما من خلافته، ولم تصل النجدة من الأمصار بعد، قرر أن لا يسن سنة سيئة، وهي خلع الخليفة لأسباب مرفوضة، استنادا إلى رغبة الحاقدين والغوغاء. وفي الوقت نفسه كان حريصا على حقن دماء المسلمين، فقرّر في ظل تلك الظروف ترجيح حقن دماء المسلمين على الحفاظ على قدسية الخلافة، وإن كان على حساب التضحية بمصيره هو.

---

[٢٧]) سيف، الفتنة ص ٥٨.

[٢٨]) سيف، الفتنة ص ٦٣؛ العدد المقدر للموجودين في المدينة حوالي العشرة آلاف وعدد لغزاة لا يتجاوز الثلاثة آلاف.

[٢٩]) سيف، الفتنة ص ٥٧-٥٨.

وكان هناك احتمال لرأي آخر، وهو: أن يرفض التنازل بالجبر، حتى لا يسن سنة سيئة وهي خلع الخليفة، لأسباب مرفوضة. وأن يُسنّ سنة فرض استمرار الحكم بالسيف، مع احتمال سفك دماء أقلية من المسلمين، وقفوا بإخلاص لحماية الخليفة والنظام.

والسؤال: أي القرارات المتوفرة للخليفة كان أقرب إلى الصواب؟

ما القرارات الأكثر صوابا في موقعة الجمل؟

ينبه الباحث بأن البحث يقتصر على الوصول إلى القرار الأصوب من القرارات الاجتهادية التي يثاب عليها صاحبها، إن أخطأ أو أصاب، وذلك بصرف النظر عن مكانة صاحبها عند الله ورسوله، وعند المسلمين.

عقب استشهاد الخليفة الراشد الثالث، عثمان ابن عفان، حاولت الفئة الباغية الحصول على بيعة علي ابن أبي طالب أو الزبير ابن العوام، أو طلحة ابن عبيد الله رضي الله عنهم. فرفض الثلاثة فحاولوا مع سعد ابن أبي الوقاص، وعبد الله ابن عمر.([٣٠]) ثم ألحوا على عليّ، رضي الله عنه، فوافق على شرط أن تكون المبايعة على ملأ من الناس، في المسجد. فتمّت مبايعته بعد خمسة أيام من استشهاد الخليفة الراشد الثالث.

ظروف المبايعة لعلي رضي الله عنه:

قال رؤوس الفتنة لأهل المدينة: لقد أجلناكم يومين. فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرا. فألحّ الناس على علي ليقبل المبايعة على الخلافة، ويخرجهم من المأزق الذي خلّفه استشهاد الخليفة بأيدي رؤوس الفتنة. فقبل بعد ممانعة. فبعث البصريون إلى الزبير بصريا وقالوا إحذر لا تحاده، وكان رسولهم حكيم ابن جبلة العبدي في نفر فجاؤوا به يحدونه بالسيف، وإلى طلحة كوفيا، وقالوا له احذر لا تحاده. وبعثوا الأشتر في نفر، فجاؤوا به يحدونه بالسيف. وأهل الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبهم، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة، لأنهم يريدون عليا. فصار أهل الكوفة وأهل البصرة أتباعا. ([٣١])

وفي يوم الجمعة حضر الناس المسجد، وجاء عليٌّ حتى صعد المنبر، فقال: يا أيها الناس، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم. وقد افترقنا بالأمس على أمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلا فلا أحقد على أحد. فقالوا نحن على ما فارقناك عليه بالأمس. وجاء الأشتر بطلحة فقالوا بايع فقال إني إنما أبايع كرها فبايع، ثم جاء حكيم ابن جبلة بالزبير، فقال مثل ذلك وبايع، ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزيز والذليل. فبايعهم، ثم قام العامة فبايعوا.([٣٢])

الخليفة الرابع الراشد يمارس سلطاته:

بويع علي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة عام ٣٥ للهجرة، وكانت أول خطبة خطبها، بعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بيّن فيه الخير والشر. فخذوا بالخير ودعوا الشر. الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حرمات غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرمات كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين. والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق.

---

[٣٠]) سيف، الفتنة ص٩٣.

[٣١]) سيف، الفتنة ص٩٣؛ اليعقوبي، تاريخ ج٢: ١٧٩.

[٣٢]) سيف، الفتنة ص ٩٤-٩٥؛ كان الأشتر وحكيم من رؤوس الفتنة.

ويروي سيف: دخل إلى عليّ طلحة والزبير في عدة من الصحابة فقالوا يا علي: إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم الخليفة. فقال لهم: يا اخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا. فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه. فقال طلحة دعني فلآت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل. فقال: حتى أنظر في ذلك. وقال الزبير دعني آتي الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل. فقال: حتى أنظر في ذلك. وسمع المغيرة بذلك المجلس فجاء وأشار عليه أن يقر معاوية على عمله، ويقر ابن عامر على عمله، ويقر عمال الخليفة عثمان على أعمالهم حتى إذا أتته طاعتهم، وبيعة الجنود استبدل أو ترك. فقال الخليفة الرابع: حتى أنظر. وأيد ابن عباس رأي المغيرة المذكور. كما رأى الخليفة عدم الأخذ باقتراح طلحة والزبير، ولا برأي المغيرة وابن عباس، فعمل على تغيير الولاة على الأمصار، إلا أبو وسى، بناء على اقتراح الأشتر. فقُبِل ولاته بالطاعة في بعض الأمصار، وبالرفض في أخرى، وعلى رأسها الشام التي كانت تحت ولاية معاوية.([٣٣])

وهنا يتساءل المسلم: أي الرأيين أقرب إلى الصواب: رأي طلحة والزبير؟ أو رأي الخليفة؟ ويتساءل أيضا: أي الرأيين أقرب إلى الصواب: رأي المغيرة وابن عباس؟ أو الرأي الذي نفّذه الخليفة الرابع؟

الخليفة يرسل إلى أبي موسى ومعاوية:

كتب علي إلى معاوية، وإلى أبي موسى بالطاعة، فلم يرد عليه معاوية وكتب له أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، مع كراهة بعضهم لما جرى ورضى آخرين. وكان رسول امير المؤمنين إلى معاوية سبرة الجهني فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه ورد رسوله. وبعد الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر دعا معاوية برجلين فدفع إليهما طومارا (رسالة في ورقة كبيرة مطوية، عنوانها من معاوية إلى علي. وقال إذا دخلتما المدينة فأعرضا الرسالة، ثم أوصاهما بما يقولا. فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار، فعلم الناس أن معاوية معترض. وناول الرجلان عليا المكتوب ففتحه فلم يجد فيه شيئا، فسأل ما وراءكما؟ فقال ورائي أني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود. قال: ممن؟ قال من قتلة عثمان. ([٣٤])

إستئذان طلحة والزبير عليا في العمرة

استأذن طلحة والزبير عليا في العمرة فأذن لهما، فلحقا بمكة وتساءل أهل المدينة عن ردِّ فعل الخليفة الرابع على رسالة معاوية، وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس، وأشار عليه زياد بن حنظلة التميمي بالأناة والرفق. ولكن الخليفة جهّز نفسه، وحثّ أهل المدينة على التّجُهز والنهوض إلى "الذين يريدون تفريق جماعتكم"، أي ليقمع المعارضة في الشام، وكتب إلى من وافقوا على البيعة له ليمدوه بالرجال. "انهضوا إلى هؤلاء القوم."

وهنا يتساءل المسلم: أي الرأيين أقرب إلى الصواب؟ الرأي الذي نفّذه الخليفة؟ أم رأي الحسن الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم "**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** ". ([٣٥])

---

[٣٣]) سيف، الفتنة ص ٩٦-١٠٠.
[٣٤]) سيف، الفتنة ص ١٠١-١٠٣.
[٣٥]) البخاري: ٢٧٠٤

ثم جاء الخبر إلى الخليفة بأن أم المؤمنين وطلحة والزبير يريدون البصرة للإصلاح، فتعبّى للخروج إليهم وقال: إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين.([٣٦]) فاشتد على أهل المدينة الأمر فتثاقلوا، فبعث إلى عبد الله ابن عمر كميلا النخعي، وهو أحد الذين شاركوا في قتل الخليفة الثالث. فجاء به فقال: انهض معي. فقال أنا مع أهل المدينة إنما أنا رجل منهم. وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم؛ فلا أفارقهم. فإن يخرجوا أخرج، وإن يقعدوا أقعد. قال: فاعطني زعيما بألا تخرج. قال: ولا أعطيك زعيما. فرجع عبد الله بن عمر إلى المدينة وهم يقولون لا والله ما ندري كيف نصنع؟ فإن هذا الأمر لمشتبه علينا. ولما رأى علي من أهل المدينة ما رأى لم يرض طاعتهم حتى يكون معها نصرته، فقام فيهم وجمع إليه وجوه أهل المدينة وقال إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله. ويقسم الشعبي بأنه لم يستجب للخليفة، في تلك الفتنة، إلا ستة بدريين ما لهم سابع أو سبعة ما لهم ثامن.([٣٧])

وصول خبر استشهاد الخليفة إلى عائشة

قُتل عثمان في ١٨ ذي الحجة عام ٣٥ للهجرة، وكان على مكة عبد الله ابن عامر الحضرمي، وعلى الموسم يومئذ عبد الله بن عباس بعثه عثمان وهو محصور. فتعجل أناس في يومين فأدركوا مع ابن عباس، فقدموا المدينة، بعدما قُتِل، وقبل أن يبايع علي. وكانت عائشة في مكة تريد عمرة المحرم، فوصلها خبر قتل عثمان رضي الله عنه وهي عائدة إلى المدينة. وقيل لها أن المبايعة تمت لعلي. فاستنكرت قتل الخليفة الثالث، وسفك الدم الحرام، واستحلال البلد الحرام، في الشهر الحرام. فأتاها عبد الله بن عامر الحضرمي، والي عثمان على مكة، فحثته والآخرين على الطلب بدم الخليفة عثمان. فاستجاب لها سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية، وقد قدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلي بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة. ([٣٨])

وتشاور المطالبون بدم الخليفة، واقنعوا أم المؤمنين عائشة على الذهاب إلى البصرة، لتحثهم على المطالبة بدم عثمان. وأرادت أم المؤمنين حفصة الانضمام إليها، فمنعها أخوها عبد الله ابن عمر. وأعانهم يعلي بن أمية بالمال والبعير لتوصلهم إلى البصرة. ثم اعتزل سعيد ابن العاص والمغيرة، بعد أن عزموا على الخروج معها.

ولما تيامن عسكرها عن أوطاس أتوا على مليح بن عوف السلمي، فسلم على الزبير وقال يا أبا عبد الله: ما هذا؟ قال: عُدِي على أمير المؤمنين رضي الله عنه، فقُتل بلا ترة ولا عذر. قال: ومن قتله؟ قال: الغوغاء من الأمصار ونُزّاع القبائل، وظاهَرهم الأعراب والعبيد. قال: فتريدون ماذا؟ قال: ننهض الناس، فيدرك بهذا الدم، لئلا يبطل، فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبدا. وإذا لم يفطم الناس عن أمثالها لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب. قال: والله إن ترك هذا لشديد، ولا تدرون إلى أين ذلك يسير. فودّع كل واحد منهما صاحبه وافترقا. وحث الزبير وطلحة ابن عمر ودعواه إلى النهوض معهم، فقال إني إمرؤ من أهل المدينة، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض وإن يجتمعوا على القعود اقعد. فتركاه. ([٣٩])

وجاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وأم المؤمنين فأمّر على المدينة تمام بن العباس، وبعث إلى مكة قثم بن العباس. وخرج ومعه من نشط من الكوفيين والبصريين البغاة متخففين في سبعمائة رجل. وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج. فلقيه عبد الله بن سلام

---

[٣٦]) سيف، الفتنة ١٠٨.
[٣٧]) سيف، الفتنة ١٠٩ –١١٠.
[٣٨]) سيف، الفتنة ص١١١- ١١٣.
[٣٩]) سيف، والفتنة ص ١١٨،

فأخذ بعنانه وقال يا امير المؤمنين: لا تخرج منها فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا. فسبّه من كان مع الخليفة. وكان الخليفة يرجو أن يأخذهم بالطريق فيعترضهم. فاستبان له بالربذة أنهم قد فاتوه.([٤٠])

قال طارق بن شهاب خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضي الله عنه فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون. وتساءلتُ هل آتي عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه؟ إن هذا لشديد فخرجت فأتيته فأقيمت الصلاة بغلس فتقدم عليّ فصلى فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس فقال قد أمرتك فعصيتني فتُقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك. فقال عليّ إنك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها. ثم أمرتك يوم قُتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا. فإن كان الفساد فيكون على يدي غيرك فعصيتني في ذلك كله. ([٤١])

أم المؤمنين في البصرة

هناك حديث في المستدرك للحاكم يقول أن النبي صلى الله عليه سلم قال لنسائه يوما "كيف بإحداكن إذ نبحتها كلاب الحوأب". والنص بجميع رواياته لا يتجاوز التنبؤ بحدوث ذلك، وليس فيه أي دلالة على الاستنكار، ولكن استثمره البعض للاستدلال على خطأ أم المؤمنين في التوجه إلى البصرة، وألّف حوله حكاية تقول بأنها عندما علمت بأنها في تلك المنطقة أرادت الرجوع.

ويقول سيف ومضى الناس حتى كانوا بفناء البصرة فلقيهم عمير ابن عبد الله التميمي وقال يا أم المؤمنين أنشدك بالله وأنت تقبلي على قوم أن تراسلي منهم أحدا فيكفيكهم. فقالت جئتني بالرأي. قال: فأرسلي ابن عامر، فليدخل فإن له صنائع فليذهب إلى صنائعه، فليلقوا الناس حتى تقدمي ويسمعوا ما جئتم فيه. فأرسلته فاندس إلى البصرة فأتى القوم. وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى رجال من أهل البصرة، وكتبت إلى الأحنف ابن قيس، وصبرة بن شيمان وأمثالهم من الوجوه. ومضت حتى إذا كانت بالحفير انتظرت الجواب بالخبر. ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف، والي الخليفة الرابع على البصرة، اثنين من أصحابه ليعلما أخبار أم المؤمنين ومن معها، فسألاها عندما لقياها عن مرادها. فقالت إن الغوغاء من أهل الأمصار ونُزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر... وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا. وقرأت: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}. نحن ننهض في الإصلاح مؤتمرين بأمر الله عز وجل، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره. فخرج أبو الأسود وعمران من عندها، فأتيا طلحة فقالا: ما أقدمك؟ قال الطلب بدم عثمان. قالا: ألم تبايع عليا؟ قال: بلى، والسيف على عنقي. وما أستقيل عليا، إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان. وجاءا إلى الزبير فكانت الإجابات نفسها. فرجع الرجلان حتى دخلا على عثمان بن

---

[٤٠]) سيف، الفتنة ص ١١٩.
[٤١]) سيف، الفتنة ص ١٢٠.

حنيف، وكان رأي أبي الأسود المقاومة.([٤٢]) وكان رأي عمران القعود، ولكن عثمان، والي الخليفة الرابع، قرر منع أم المؤمنين ومن معها من تنفيذ ما يريدون حتى يأتي أمير المؤمنين، رغم نصح الآخرين بأن قراره يؤدي إلى شر، وفتق لا يرتق، وصدع لا يجبر.

ونادى عثمان في الناس وأمرهم بالتهيؤ ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع، وكلّف أحدا ليقول للناس إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان رضي الله عنه فما نحن بقتلة عثمان. فقام الأسود ابن سريع السعدي وقال: إنما فزعوا إلينا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا. فحصبه الناس.

فتكلم طلحة وهو في ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان في مسيرته فأنصتوا له، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه، ودعا إلى الطلب بدمه. وقال إن في ذلك ([٤٣]) إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه. والطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حد من حدود الله، وإنكم إن فعلتم أصبتم، وعاد أمركم إليكم، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ولم يكن لكم نظام. وتكلم الزبير بمثل ذلك. فقال البعض: صدقا وبرا، وقالا الحق وأمرا بالحق. وقال البعض: فجرا وغدرا، وقالا الباطل وأمرا به. وكادو يشتبكون، فتكلمت عائشة وكانت جهورية فحمدت الله عز وجل وأثنت عليه، وقالت كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه، ويزرون على عماله، ويأتوننا بالمدينة، فيستشيروننا فنجده بريا تقيا وفيا، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون. فلما قووا على المكاثرة كاثروه، فاقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام، بلا ترة ولا عذر. ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه، وإقامة كتاب الله عز وجل {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ.}([٤٤]) فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين. فقالت فرقة صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف. وقال الآخرون كذبتم والله ما نعرف ما تقولون فتحاثوا بالتراب، وتحاصبوا بالحجارة. فلما رأت ذلك عائشة انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا في المربد في موضع الدباغين. وبقي أصحاب عثمان ابن حنيف على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى ([٤٥]) عائشة وبقي بعضهم مع عثمان. وأرسل زيد ابن صوحان، أحد رؤوس الفتنة، ينصح أم المؤمنين بالعودة من حيث جاءت ويهددها بأنه سيقاتلها إذا لم تعد، وانتقد شابٌ طلحة والزبير على الخروج لطلب القصاص من قتلة الخليفة عثمان.([٤٦])

قتال عائشة وعثمان بن حنيف:

كان حكيم بن جبلة رجلا لصا، إذا رجعت الجيوش خنس عنهم، فسعى في أرض فارس، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم، ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى الخليفة عثمان. فكتب إلى واليه، عبد الله بن عامر أن أحبسه، حتى تأنسوا منه رشدا. ([٤٧]) وعندما جاءت أم المؤمنين ومن معها للاقتصاص من قتلة عثمان أقبل حكيم بن جبلة، وانضم إلى والي الخليفة علي، وأنشب القتال. فأشرع أصحاب عائشة، رضي الله عنها ، رماحهم وأمسكوا ليمسكوا، فلم ينته ولم ينثن. فقاتلهم. وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن

---

[٤٢]) سيف، الفتنة ص ١٢١- ١٢٢.
[٤٣]) سيف، الفتنة ١٢٣.
[٤٤]) سورة آل عمران: ٢٣.
[٤٥]) سيف، الفتنة ص ١٢٤.
[٤٦]) الطبري، الكرمي ص ٨٨٠.
[٤٧]) سيف، الفتنة ص ٤٢.

أنفسهم؛ وحكيم يذمر خيله ويركبهم بها، ويقول إنها قريش ليرديّنها جُبنها والطيش. واقتتلوا على فم السكة (الطريق) وأشرف أهل الدور ممن كان له في واحد من الفريقين هوى، فرموا باقي الآخرين بالحجارة. وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها مليا. ثم انتقلوا إلى مقبرة بنو حصن وهي متنحية، فباتوا يتأهبون وبات الناس يسيرون إليهم. وأصبح عثمان بن حنيف فجاءهم وحكيم بن جبلة وهو يبربر وفي يده الرمح، فقال له رجل من عبد القيس: من هذا الذي تسب وتقول له ما أسمع؟ قال: عائشة. قال: يابن الخبيثة. ألأم المؤمنين تقول هذا؟ فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله. ثم مر بامرأة وهو يسبها يعني عائشة فقالت: من هذا الذي ألجأك إلى هذا؟ قال عائشة: قالت يابن الخبيثة. ألأم المؤمنين تقول هذا؟ فطعنها بين ثدييها فقتلها. ثم سار حكيم بن جبلة فلما اجتمعوا واقفوهم فاقتتلوا بدار الرزق قتالا شديدا، ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون. حتى إذا مس جيش والي الخليفة الرابع الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح والمتاب فأجابوهم. وكتبوا بينهم كتابا على أن يبعثوا كعبا إلى المدينة ليتأكد من أن طلحة والزبير بايعا مكرهين. فإن كانا أكرها خرج عثمان وأخلى لهما البصرة، وإن شاء دخل معهما. أما إذا لم يكونا مكرهين. فالأمر أمر عثمان، والمؤمنون أعوان الفالح من الطرفين. ولما قدم كعب إلى المدينة سأل الناس فلم يجب أحد، خوفا من سطوة البغاة الذين يسيطرون على المدينة، ولكن أسامة بن زيد شهد بأنهما كانا مكرهين. فاعترضه بعض البغاة، فانتصر لقوله صحيب بن سنان، وأبو أيوب بن زيد، في عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهم محمد بن مسلمة، حين خافوا أن يقتل البغاة أسامة.([٤٨]) غير أن سيف يقول بأن عليّ كتب إلى واليه بأنهما لم يُكرها. ولهذا رفض واليه عثمان تنفيذ الاتفاق الذي كان منصفا جدا، ويعكس حسن نوايا أم المؤمنين ومن معها، ويؤكد عدم وجود مصالح شخصية لهم.

وهنا يبدو أن الرسائل المكذوبة كانت وسيلة سهلة سخّرها رؤوس الفتنة لتحقيق مآربهم، ومنها الكذب على عثمان الخليفة بأنه أرسل إلى واليه في مصر بقتل رؤوس الفتنة من مصر، حيث كشف علي ابن أبي طالب كذبها، وأحرج الغزاة. فعندما أقنعهم الخليفة ببراءته، غادر الثوار، ثم عادوا بحجة أن الخليفة أرسل إلى واليه في مصر ليقتل ثوار مصر. فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل فرجعتم إلينا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة. قالوا: فضعوه على ما شئم، لا حاجة لنا في الرجل، ليعتزلنا. ([٤٩]) وكذبوا على أم المؤمنين عائشة بأنها كتبت لهم بقتل نعثل، أي الخليفة عثمان. وهذه كذبة أخرى على الخليفة الرابع. فقد ثبت أن عليا اعتذر عن تأجيل تطبيق الحد على قتلة عثمان لسيطرة البغاة على المدينة، كما أن مبايعة طلحة والزبير كانت عن إكراه أمام عيني الخليفة الرابع.

عودة القتال وانتصار عائشة ([٥٠])

قدم كعب من المدينة ليؤكد شهادة بعض الصحابة بأن مبايعة طلحة والزبير كانت عن إكراه، فأرسلوا إلى عثمان أن أخرج عنا. فادعى عثمان بأن كتابا جاءه من علي يقول بايعا غير مكرهين. فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة، ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء. فأبطأ عثمان بن حنيف، فقدما عبد الرحمن بن عتاب، فشهر حراس الوالي عثمان من الزط والسيابجة، السلاح ثم وضعوه فيهم، فاقتتلوا في المسجد فتمكن رجال طلحة والزبير من

---

[٤٨]) سيف، الفتنة ص١٢٦ – ١٢٨.
[٤٩]) الطبري، تاريخ ج ٢: ٦٥٣.
[٥٠]) سيف، الفتنة ص ١٢٩- ١٣٥.

قتلهم. وأرسلوا الرجال إلى عثمان ليخرجوه إليهما فلما وصل إليهما تناوله الرجال بالشد والدفع ونتف لحيته حتى لم يبق في وجهه شعرة. فاستعظما ذلك وأرسلا إلى عائشة بالذي كان واستطلعا رأيها. فأرسلت إليهما أن خلوا سبيله فليذهب حيث شاء ولا تحبسوه، وأخرجوا حراسه من القصر.

فأصبح طلحة والزبير وبيت المال والحرس في أيديهما، والناس معهما، ومن لم يكن معهما مغمور مستتر. وأصبح حكيم بن جبلة في خيله على أهبة الاستعداد فيمن تبعه من عبد القيس ومن نزع إليهم من ربيعة. ثم توجّه إلى حيث جيش أم المؤمنين يشتمها فسمعته امرأة من قومه فشتمته فقتلها، فغضبت عبد القيس. واجتمع حكيم بن جبلة مع من غزا معه الخليفة الثالث، في المدينة، وشارك في حصاره، ومضوا إلى حيث ينزل جيش أم المؤمنين. وقالت عائشة لا تقتلوا إلا من قاتلكم ونادوا من لم يكن من قتلة عثمان رضي الله عنه فليكفف عنا. فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نبدأ أحدا. فأنشب حكيم القتال ولم يأبه لنداء المنادي.

ويقول سيف قتل، في هذا اليوم، ذريح بن عباد العبدي، أحد رؤوس الفتنة، ومن معه. ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة: ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم. فجئ بهم، فقتلوا. وما أفلت منهم من أهل البصرة جميعا إلا حرقوص بن زهير فإن بني سعد منعوه. ومن الواضح أن إعلان أم المؤمنين وطلحة والزبير كان واضحا، تبين هدفهم من المجيئ إلى البصرة، ولا يخالطه شئ من المصالح الشخصية، مثل الولاية أو الخلافة.

وأقام طلحة والزبير ليس معهما بالبصرة ثأر إلا حرقوص. وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه. إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع، والكثير والقليل حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك. فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم، وخالفنا شرارهم وردُّونا بالسلاح. وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى أهل الكوفة، بأنها دعت جماعة عثمان، والي الخليفة الرابع، فقالوا: لنتُبعنّكم عثمان ابن عفان. وذلك ليزيدوا الحدود تعطيلا فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر، وقالوا لنا المنكر فقرأنا عليهم {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم}. فأذعن لي بعضهم واختلفوا بينهم فتركناهم، ولكن من كان منهم على رأيه الأول وضعوا السلاح في أصحابي، وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلوني. ومكثنا ستا وعشرين ليلة ندعوهم إلى كتاب الله وإقامة حدوده، وهو حقن الدماء أن تهراق دون من قد حل دمه، فأبوا واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها فخانوا وغدروا. وكانت الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر عام ٣٦ للهجرة.

توجه الخليفة الرابع إلى البصرة:

لما أراد الخليفة الرابع الخروج من الربذة إلى البصرة قام إليه ابنٌ لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه، أي أن يبايعوه فيوجدوا كلمة المسلمين. قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم. قال: فنعم إذا.([٥١]) وهذا القول المنسوب إلى الخليفة الرابع، مشكوك فيه لأنه يثير تساؤلات، مثل: كيف نفسر محاولته اعتراض جيش عائشة، ليمنعه من تنفيذ القصاص، مستعينا برؤوس الفتنة؟ وكيف نفسر عزمه على التوجه إلى الشام لأخذ البيعة له؟

[٥١]) سيف، الفتنة ص ١٣٦.

وقدم رجل من أهل الكوفة، قبل خروج علي، وقدّم نفسه بأنه عامر بن مطر الليثي. فسأله عليٌ أخبرني عما وراءك؟ فأخبره، حتى سأله عن أبي موسى. فقال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك؛ وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك. وكان موقف أبي موسى، منذ البداية، الانعزال عن الفتنة، ومع هذا أخذ البيعة للخليفة الرابع في الكوفة.

ولما نزل الخليفة الرابع الثعلبية أتاه الذي لقي عثمان بن حنيف وحرسه، فقام وأخبر القوم الخبر؛ وقال اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين وسلمنا منهم أجمعين. ثم أتاه خبر ما لقي حكيم بن جبلة وقتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه. فقال الله أكبر ما ينجيني من طلحة والزبير إذ أصابا ثأرهما أو ينجيهما.([٥٢])

موقف أبي موسى الأشعري

لما قدم رسولا الخليفة الرابع، محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، على الكوفة أتيا أبا موسى بكتاب أمير المؤمنين، وقاما في الناس بأمره فلم يجابا إلى شيء. فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجي على أبي موسى فقالوا: ما ترى في الخروج؟ فقال: إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا، فاختاروا فلم ينفر إليه أحد. فغضب الرجلان وأغلظا لأبي موسى. فقال أبو موسى: والله إن بيعة عثمان، رضي الله عنه، لفي عنقي وعنق صاحبكما. فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحدا حتى يفرُغ من قتلة عثمان، حيث كانوا، فانطلقا إلى علي فوافياه بذي قار وأخبراه الخبر. وكان قد خرج مع الأشتر، يتعجل السير إلى الكوفة فقال علي: يا اشتر أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء. اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت.([٥٣]) وهنا يتساءل القارئ، إن صدقت العبارة الأخيرة، هل يشير الخليفة في كلمة "أفسدت" إلى الأشتر لأنه أحد الذين تسبب في الفتنة؟

فخرج عبد الله بن بن عباس ومعه الأشتر فقدما الكوفة وحاولا إقناع أبي موسى الأشعري فكان خلاصة قوله: إن لكم علينا حقا فأنا مؤديه إليكم. كان الرأي ألا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عز وجل. وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم، ولا تكلفوا الدخول في هذا. فأما إذ كان ما كان فإنها فتنة صماء. النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب. فاغمدوا السيوف وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة.

ولما رجع ابن عباس إلى علي بالخبر دعا الحسن بن علي فأرسله وأرسل معه عمار بن ياسر. فأقبلا حتى دخلا المسجد فكان أول من أتاهما مسروق بن الأجدع فسلم عليهما وسأل عمار: يا أبا اليقظان، علام قتلتم عثمان رضي الله عنه؟ قال على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا. فقال: والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به. ([٥٤]) فخرج أبو موسى فلقي الحسن فضمه إليه. وأقبل على عمار فقال: يا أبا اليقظان أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين، فأحللت نفسك مع الفجار؟ فقال: لم أفعل ولم تسؤني. وقطع عليهما الحسن فاقبل على أبي موسى وقال: يا أبا موسى لِمَ تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا ([٥٥]) الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء. فقال صدقت بأبي أنت وأمي، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ستَكُونُ فِتنٌ. القَاعِدُ فيها خَيرٌ من القَائِمِ، وَالقَائِمُ فيها خَيرٌ من المَاشِي، وَالمَاشِي فيها خَيرٌ من السّاعِي، ومَنْ يُشرِفْ

---

[٥٢]) سيف، الفتنة ١٣٧.

[٥٣]) سيف، الفتنة ص ١٣٨.

[٥٤]) كان عثمان أمر بتعزير عمار وعتبة لأنهما تقاذفا فاستحقا التعزير، انظر سيف، الفتنة ص ٧٩؛ والطبري ج٢: ٦٨٠.

[٥٥]) سيف، الفتنة ١٣٩.

لها تَستَشْرِفْهُ ومَنْ وجَدَ مَلجَأً أو معَاذًا فَلْيَعُذْ بهِ".([٥٦]) وأضاف جعلنا الله عز وجل إخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا، يقول تعالى {لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما}. وقال جل وعز{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم}. فغضب عمار وأساء القول لأبي موسى فاختصم الناس فجعل أبو موسى يكفكف الناس.

وقام الحسن بن علي فحث الناس على الانضمام إلى فريق الخليفة الراشد الرابع فلقي استجابة. ([٥٧]) وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين، وانفروا خفافا وثقالا وأنا أولكم. وقام الأشتر فذكر الجاهلية وشدتها والإسلام ورخاءه، وذكر عثمان رضي الله عنه بسوء، فقام إليه المقطع بن الهيثم بن فجيع العامري ثم البكائي وقالا: اسكت قبحك الله. فثار الناس فأجلسوهما.

نزول أمير المؤمنين علي ذي قار

لما قدم أهل الكوفة بذي قار تلقاهم علي في أناس فيهم ابن عباس فرحب بهم وأثنى على أهل الكوفة. فاجتمع بذي قار سبعة آلاف ومائتان، وعبد القيس بأسرها، وبضعة آلاف أخرى من أهل البصرة. ([٥٨])

مساعي الإصلاح

اجتمع للخليفة الرابع عدد كبير من المناصرين([٥٩]) فنزل بهم على ذي قار ودعا القعقاع بن عمرو، وأرسله إلى أهل البصرة، وقال له الق هذين الرجلين، أي طلحة والزبير. فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة رضي الله عنها فسلم عليها، وقال: أي أمة ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني إصلاح بين الناس، أي بالقصاص من قتلة الخليفة الثالث. قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثت إليهما، فجاءا فقال: إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمُتَابعان أم مُخالفان؟ قالا: متابعان. قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فقال: نريد قتلة عثمان رضي الله عنه. فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم. قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف. واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم ذلك الذي أفلت، يعني حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف وهم جاهزون للحرب. فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون...

فقالت أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ ([٦٠]) قال: أقول هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة. وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر... فقالوا: نعم، إذًا قد أحسنت وأصبت المقالة، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر. فرجع إلى علي فأخبره فاعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح: كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه.

ومن الواضح أن موقف أم المؤمنين وطلحة والزبير مختلف عن حالة معاوية وأهل الشام، فهم ليسوا من الممتنعين عن البيعة أو المعارضين – في الأصل. ولم تكن لهم مصالح

---

[٥٦]) البخاري ج٣: ١٣١٨، تحقيق البغا.؛ سيف، الفتنة ص ١٣٨.
[٥٧]) سيف، الفتنة ص١٤١- ١٤٢.
[٥٨]) سيف، الفتنة ص ١٤٣-١٤٤.
[٥٩]) سيف، الفتنة ص ١٤٤.
[٦٠]) سيف، الفتنة ص ١٤٥.

شخصية محتملة، بل كانوا حريصين على تنفيذ القصاص بالمستحقين لها، وحريصين على وحدة الأمة، دون سفك دماء المسلمين. ولهذا بدا كلام القينقاع منطقيا لتأجيل تطبيق القصاص. وتجاوبوا معه، ولم يجادلوه بمنطقه نفسه بالنسبة لحرص الخليفة الرابع على وحدة المسلمين تحت إمرته، وإن أدى إلى قتال المسلمين وسفك دماء الآلاف منهم.

فكان قرار أم المؤمنين وطلحة والزبير، مرنا في ظل الواقع، يوازن بين المطلوب شرعا (تطبيق حد القصاص)، والممكن في الظروف الواقعية المحددة.

وفي الجهة الأخرى فقد كان الخليفة مصرا على المضي في توحيد المسلمين أو الحصول على البيعة بالسيف.

ولو استخدمنا منطق القينقاع الذي أقنع أم المؤمنين ومن معها، في قرارات الخليفة الراشد الرابع الحريص على وحدة كلمة المسلمين تحت إمرته، ولو بالاستعانة برؤوس الفتنة وقتلة عثمان، وتأجيل القصاص، ستبرز تساؤلات، منها:

أولا – هل فكر القعقاع في استخدام منطقه في إقناع الخليفة ويدعوه لى الموازنة بين المأمول وبين الواقع؟

ثانيا - أي القرارين أقرب إلى الصواب لجمع كلمة المسلمين، وحقن دمائهم، وتجنب سخطهم، وتطبيق حدود الله: ١) قرار أم المؤمنين ومن معها الذي يوازن بين المصالح المتضاربة؟ أو قرار الخليفة الرابع الذي يرى الاستمرار في تحقيق الوحدة تحت إمرته، مهما كانت التكاليف، أو الاحتمالات؟

ويروي سيف أنه لما جاءت وفود أهل البصرة إلى أهل الكوفة ورجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم جمع عليٌّ الناس، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة وإنعام الله على الأمة بالجماعة، بالخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، وإني راحل غدا فارتحلوا. ([٦١]) وهذا الكلام مشكوك في نسبته إلى الخليفة علي ابن أبي طالب لأن العاقل يدرك أنه لا ينطبق على أم المؤمنين، ولا على طلحة، أو الزبير. فليس هناك احتمال لتهمتهم بالسعي وراء مصالح شخصية، مثل الولاية أو الأمارة.

رؤوس الفتنة يفسدون الصلح

اجتمع نفر من المتلبسين في استشهاد الخليفة عثمان، منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفى بن ضبيعة، ومالك الأشتر في عدة ممن سار إلى عثمان ورضي بسير من سار. وانضم إليهم من المصريين ابن السوداء، وخالد بن ملجم. وتشاوروا فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله عليّ، وهو أبصر الناس بكتاب الله وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلى العمل بذلك. فكيف به إذا اجتمع القوم وإذا رأوا قلتنا في كثرتهم؟ أنتم مطاردون، ولن ينجيكم شيء. فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم. ورأي الناس فينا، والله، واحد، وإن يصطلحوا وعليٌّ فعلى دمائنا. فهلموا فلنتواثب على عليّ فلنلحقه بعثمان، فتعود فتنة ينشغل بها الناس عنا. واقترح البعض الاعتزال عن الفريقين. فقال ابن السوداء بئس ما رأيتم. ود والله الناس أنكم منعزلون، ولم تكونوا مع أقوام برآء. ولو كان ذلك الذي تقول لتخطفكم كل شيء. وقال: يا قوم إن عزكم في

---

[٦١]) سيف، الفتنة ص ١٤٤-١٤٦.

خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غدا فأنشبوا القتال، فينشغل عنكم علي وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم. ([٦٢])

وشكك بعض من كان مع أم المؤمنين في احتمال الصلح وقالوا: يا طلحة، يا زبير. فقالا: إنا وهم مسلمون. وهذا أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن أو يكون فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة. إنما هو حدث، وقد رأوا تأجيل القصاص، اتقاء لشر محتمل، وارتئينا تعجيله فهو أقل شرا. وقالا: إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس، فإخواننا لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون. إن الشيء يحسن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم، وإنا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة ثم يحتجون بها على أمثالها. ونحن نرجوا الصلح إن أجابوا إليه، وإلا فإن آخر الدواء الكي.

وقام عليٌّ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال يا ايها الناس أملكوا أنفسكم كفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم. فإنهم إخوانكم واصبروا على ما يأتيكم وإياكم أن تسبقونا فإن المخصوم غدا من خصم اليوم، ثم ارتحل وأقدم ودفع تعبيته التي قدم فيها حتى إذا أطل على القوم بعث إليهم حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب، إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا فننظر في هذا الأمر. ([٦٣])

وبهذا بدا واضحا أن هناك ثلاث فرق: فرقة مع علي وأخرى مع أم المؤمنين، وثالثة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين، وذلك إضافة الفئة الباغية المتآمرة على الصلح. ولم تستند الانقسامات على الانتماء القبلي أو المحلي. فالبصريون انقسموا بين الفريقين، وكذلك بعض القبائل انقسمت إلى فريقين. ([٦٤])

وخرج طلحة والزبير فنزلا بالناس من الزابوقة، في موضع قرية الأرزاق، ومعهم مضر وربيعة واليمن جميعا، وهم لا يشكون في الصلح وهم ثلاثون ألفا. وأخبروا رسولي الخليفة الرابع، حكيما ومالكا بأنهم على ما فارقهم عليه القعقاع. وخرج أمير المؤمنين فيمن معه وهم عشرون الفا وأهل الكوفة... ولما نزل الناس واطمأنوا خرج علي وطلحة والزبير، فتواقفوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمرا هو أمثل من الصلح ووضع الحرب حين رأوا الأمر قد أخذ في الإنقشاع وأنه لا يدرك. فافترقوا عن موقفهم على ذلك ورجع علي إلى عسكره وطلحة والزبير إلى عسكرهما. ([٦٥])

فلما أمسوا وذلك في جمادى الآخرة عام ٣٦ للهجرة أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، فباتوا على الصلح. وأما أولئك الذين بغوا على الخليفة عثمان فباتوا بشر ليلة باتوها قط. قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى إجتمعوا على إنشاب الحرب في السر. واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر. فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالا وعليهم ظلمة، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربعيهم إلى ربعيهم، ويمانيهم إلى يمانيهم. فوضعوا فيهم السلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم .

وخرج الزبير وطلحة في وجوه الناس من مضر فبعثا من يتحقق من الأمر

---

[٦٢]) سيف، الفتنة ص ١٤٧- ١٤٩.
[٦٣]) سيف، الفتنة ص١٥٠- ١٥١.
[٦٤]) سيف، الفتنة ١٥٣.
[٦٥]) سيف،الفتنة ص١٥٤- ١٥٥.

وسأل: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلا. ومن الجهة الأخرى، وضع المتآمرون رجلا قريبا من الخليفة عليّ ليخبره بأن جيش أم المؤمنين فاجوؤهم وبيتوهم. وهكذا اختلط الحابل بالنابل واشتعلت المعركة بين الفريقين. ([٦٦])

وقالت عائشة: خلِّ يا كعب عن البعير، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه ودفعت إليه مصحفا. فأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح فاستقبلهم كعب بالمصحف وعليّ من خلفهم يزعهم ويأبون إلا إقداما. فلما دعاهم كعب رشقوه رشقا واحدا فقتلوه ورموا عائشة في هودجها. فجعلت تنادي يا بني البقية البقية، ويعلو صوتها كثرة، الله، الله، اذكروا الله عز وجل والحساب، فيأبون إلا إقداما. وحين رأت أم المؤمنين أنهم أبوا، قالت أيها الناس: العنوا قتلة عثمان وأشياعهم. وأقبلت تدعو وضج أهل البصرة بالدعاء. وسمع علي بن أبي طالب الدعاء، فقال: ما هذه الضجة؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم. فأقبل يدعو ويقول اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم. وهذا دليل على صدق نية علي، رضي الله فيما يدعوا إليه، وفي براءته من المساهمة في الفتنة وقتل الخليفة عثمان.

وكان مع الخليفة أقوام من غير مضر، ومنهم زيد بن صوحان، من روؤس الفتنة، فقال له رجل من قومه: تنح إلى قومك ما لك ولهذا الموقف؟ ألست تعلم أن مضر بحيالك؟ وأن الجمل بين يديك وأن الموت دونه. فقال الموت خير من الحياة الموت ما أريد، فأصيب، وأخوه سيحان، وصعصعة.([٦٧])

واستحر القتال إلى انتصاف النهار وأصيب فيه طلحة رضي الله عنه، وذهب فيه الزبير رضي الله عنه. فلما أووا إلى عائشة وأبى أهل الكوفة إلا القتال ولم يريدوا إلا عائشة فخرضتهم على الصمود، فاقتتلوا حتى تنادوا فتحاجزوا. فرجعوا بعد الظهر فاقتتلوا وذلك **يوم الخميس في جمادى الآخرة** عام ٣٦. فاقتتلوا صدر النهار مع طلحة والزبير، وفي وسطه مع عائشة و تزاحف الناس. وأقبلت ربيعة فقُتل على راية الميسرة من أهل الكوفة زيد وصرع صعصعة، شريك الأشتر، في إثارة الفتنة ضد والي عثمان في البصر...([٦٨]) وقد كان هودج أم المؤمنين في حلقة من أهل النجدات والبصائر وما رامه أحد من أصحاب عليّ إلا قُتل أو أفلت ثم لم يعد. فجاء الأشتر فعارضه عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وإنه لأقطع منزوف فاعتنقه ثم جلد به الأرض عن دابته فاضطرب تحته فأفلت وهو جريح. ([٦٩])

وكان آخر من قاتل ذلك اليوم زفر بن الحارث فزحف إليه القعقاع فلم يبق حول الجمل عامري مكتهل إلا أصيب يتسرعون إلى الموت. وصرخ القعقاع: يا بجير بن دلجة، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين. فقال يا آل ضبة، يا عمرو بن دلجة ، فاجتث عمرو ابن دلجة ساق البعير فرمى بنفسه على شقه وجرجر البعير. وقال القعقاع لمن يليه أنتم آمنون، واجتمع هو وزفر على قطع الحبال التي تربط الهودج بالبعير، وحملا الهودج فوضعاه على الأرض. ولما أمسى الناس، تقدم عليٌّ، وأحيط بالجمل ومن حوله وقال: إنكم آمنون فكفّ الناس عن القتال. وجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر عائشة واحتملا الهودج فنحياه حتى أمرهما عليٌّ بأن يدخلاها البصرة، فأدخلاها دار عبد الله بن خلف الخزاعي. ([٧٠])

---

[٦٦]) سيف، الفتنة ص ١٥٦.
[٦٧]) سيف، الفتنة ص ١٥٦- ١٥٩.
[٦٨]) سيف الفتنة ص ١٦٠- ١٦٣.
[٦٩]) سيف، الفتنة ص١٦٣- ١٦٤.
[٧٠]) سيف، الفتنة ص١٦٦- ١٧٢

نتائج موقعة الجمل:

كانت موقعة الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ للهجرة، في قول الواقدي. وكان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة. وكان من ضحاياها طلحة ابن عبيد الله الذي أصابه سهم في ركبته، فنزف الدم غزيرا وثقل، فقال لمولاه أردفني وأبغني مكانا لا أُعرف فيه. فأخذه حتى انتهى به إلى دار من دور البصرة مهجورة وأنزله فيها، فمات ودفن رضي الله عنه في بني سعد. ([٧١]) وكان من ضحايا موقعة الجمل الزبير ابن العوام فبعد انهزام الناس مضى بعيدا عن أرض المعركة، فحضرت الصلاة فوقف ليصلي، فاغتاله ابن جرموز وقتله. ([٧٢])

وأما الذين شاركوا في قتل الخليفة الثالث: يزيد ابن صوحان، وأخوه، وعلباء ابن الهيث فقد لقيوا حتفهم عندما كانوا يحاولون الهجوم على هودج أم المؤمنين.([٧٣])

سيرة علي فيمن يقاتلهم

كان من سيرة علي، رضي الله عنه، ألا يقتل مدبرا ولا يقضي على جريح، ولا يكشف سترا، ولا يأخذ مالا. فقال قوم يومئذ يحل لنا دماءهم، ويحرم علينا أموالهم؟ فقال علي: القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا، ونحن منه. أما من قاتل حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وإنّ لكم في خمسه لغنى. فتكلمت الخوارج ثم انشقوا.([٧٤]) ويقول أحد أتباعه: كان يأمرنا في كل موطن لقينا فيه معه عدوا يقول لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم. فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم. فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ولا تدخلوا دارا إلا بإذن ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم. فإنهن ضعاف القوى والأنفس.([٧٥])

خروج عائشة من البصرة إلى مكة

كتب الخليفة، علي، بخبر النصر إلى عامله بالكوفة. وجهّز عليٌّ عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام. وأوصى أخوها محمد بمرافقتها، وودعها. فقالت، يابني، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي، على معتبتي، من الأخيار. وقال علي: يا أيها الناس صدقت والله وبرّت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة. وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ هـ وشيّعها الخليفة الرابع أميالا وسرح بنيه معها يوما.

القرارات التي أسهمت في إهدار دم آلاف المسلمين:

كما لا حظنا، أسفرت موقعة الجمل عن سفك دم حوالي العشرة آلاف مسلم. والقرارات التي أسهمت فيها، إضافة إلى قرار المستحقين للقصاص، وظروفها تتمثل فيما يلي:

---

[٧١]) سيف، الفتنة ص ١٦٧.
[٧٢]) سيف، الفتنة ص ١٧٤.
[٧٣]) سيف، الفتنة ص ١٦٩.
[٧٤]) الفتنة ص ١٨١.
[٧٥]) الطبري، تاريخ ج ٣: ٨٢.

أولا – قرار خروج أم المؤمنين عائشة، وطلحة ابن عبيد الله، والزبير ابن العوام إلى البصرة للاقتصاص من المساهمين في قتل الخليفة الثالث ظلما وعدوانا. وجاء هذا القرار الأول في ظروف، منها: ١) ثبوت قتل الخليفة الثالث ظلما وعدوانا، ٢) بيعة طلحة والزبير للخليفة الرابع تحت تهديد السلاح، ٣) انشغال الخليفة كلية عن واجب تطبيق القصاص، مدة أربعة أشهر، رغم تذكير طلحة والزبير وآخرين بضرورته، فاعتذر حينها لسيطرة المستحقين للقصاص على المدينة، ٤) اقترحا عليه الاستعانة بالمسلمين في الكوفة والبصرة، فأبى الخليفة الرابع. ٥) اقترح عليه المغيرة وأيّده ابن عباس على عدم التسرع في استبدال ولاة عثمان حتى تستقر الأمور له، فأبى، ٦) اقترح عليه البعض البقاء في المدينة فعزم على إخضاع أهل الشام لبيعته، ٧) الاستعانة بالمساهمين في قتل الخليفة الثالث، لمحاربة المطالبين بتطبيق حد القصاص، وملاحقته أم المؤمنين وطلحة والزبير إلى البصرة لمنعهم من تنفيذ القصاص، بدلا من التوجه إلى الشام لإخضاع الرافضين للبيعة إلا بشرط تنفيذ القصاص أو تمكينهم من ذلك.

وكان قرار أم المؤمنين وطلحة والزبير واضحا، حيث قال طلحة والزبير: إن بيعة علي في رقابهما، إن هو لم يحل بينهم وبين قتلة عثمان.([٧٦]) ومع هذا وافقا ووافقت أم المؤمنين، بسهولة، على تأجيل القصاص من البقية حتى أن تستقر الأمور للخليفة الرابع.

ثانيا – قرار الخليفة الرابع **جمع كلمة المسلمين تحت إمرته أولا، ثم النظر في أمر القصاص**، وذلك باعتبار مبايعة أهل المدينة له هي مبايعة أهل الأمصار، كما جرى العرف بالنسبة لبيعة أبي بكر، وعمر، وعثمان. ولكن يلاحظ أن بيعته، رضي الله عنه، جاءت في ظروف تختلف عن ظروف بيعة من سبقوه، فحتى حادثة اغتيال الخليفة الثاني، تم فيها الاقتصاص فورا. وأما وضعه فكان حرجا في مدة السيطرة القهرية للغزاة على المدينة، ولكن كانت هناك خيارات للتعامل معها، حينها وفيما بعد:

١. إبقاء ولاة الخليفة الثالث حتى تستقر الأمور، ثم يفعل ما يريد، وذلك في مقابل القرار الذي اتخذه وهو الإسراع في تبديلهم، إن لم يبايعوه.
٢. الاستعانة بمن اقترحهم طلحة والزبير، وذلك في مقابل القرار الذي اختاره، وهو صرف النظر عن الاستعانة بهم، ففوّت على نفسه فرصة التخلص من سطوة الغزاة على العاصمة الإسلامية، والقرارات السياسية فيها.
٣. تجاهل المستحقين للقصاص أو عزلهم عن جيشه، عندما أمكنه ذلك. وذلك في مقابل قراره الاستعانة بهم في قتال مخالفيه إلى آخر لحظة، وبالتالي توفير الحماية لهم ومنحهم الفرصة لإفساد الصلح، والتسبب في إراقة دم عشرة آلاف من المسلمين في يوم واحد. وكما قال بعض رؤوس الفتنة وقتلة الخليفة عثمان، عندما أوشك الصلح أن يتم بين أم المؤمنين والخليفة الرابع، "ود الناس أنكم منعزلون، ولم تكونوا مع أقوام برآء لتخطفكم كل شيء. وقال آخر:"يا قوم إن عزكم في خلطة الناس".

والسؤال: أي القرارات السابقة أكثر صوابا؟

ما هي القرارات الأكثر صوابا في صفين؟

ينبه الباحث للمرة الثالثة بأن البحث يقتصر على الوصول إلى القرار الأصوب من القرارات الاجتهادية التي يثاب عليها صاحبها، إن أخطأ أو أصاب، وذلك بصرف النظر عن مكانة صاحبها عند الله ورسوله، وعند المسلمين.

---

[٧٦]) سيف، الفتنة ص ١٢٢؛ الطبري ٨٧٠ الكرمي؛

عمرو بن العاص يؤيد معاوية في طلب دم عثمان:

خرج عمرو ابن العاص، رضي الله عنه، مع ابنيه من المدينة، متوجها إلى الشام، قبل حصار الخليفة عثمان، واستشهاده، وكان الخليفة قد استشهد في يوم الجمعة ١٨ ذي الحجة عام ٣٥ للهجرة. فوصله خبر حصار الخليفة الثالث وهو في الطريق، ثم وصله خبر استشهاده والبيعة لعلي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، خليفة. ولما قدم على معاوية وجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فأعرب عن تأييده لذلك. ([٧٧])

وكان قد بويع لعلي ابن أبي طالب بالخلافة، بعد خمسة أيام، من استشهاد الخليفة الراشد الثالث، أي في يوم الجمعة ٢٤ من ذي الحجة في العام نفسه. فبعث أمير المؤمنين سبرة الجهني إلى معاوية ليبايعه، فلم يجب إلا بعد ثلاثة أشهر من استشهاد عثمان، يطالبه بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه.([٧٨])

وعندما فرغ علي من موقعة الجمل، حوالي منتصف شهر رجب عام ٣٧ للهجرة، وجّه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في طاعته، بدلا من الأشتر الذي اقترح إرساله هو لعدم ثقته في جرير.([٧٩])

ويستغرب القارئ للتاريخ أن الخليفة الرابع، حتى بعد خمسة أشهر، لم يكتشف سبب نشوب الحرب فجأة بينه وبين جيش أم المؤمنين، وكانا قد اتفقا على الصلح في الليلة السابقة لموقعة الجمل التي لم تستغرق سوى يوم واحد. وقد يشكك البعض في حدوث تلك المؤامرة من رؤوس الفتنة، أو يتجاهلها، ولكن هناك اتفاق بين المؤرخين على وجود اتفاق الصلح. فكيف يفسر العاقل اشتعال القتال فجأة، إلا أن يفترض أو يجزم بوجود تلك المؤامرة التي دبرها المألبون على الخليفة الراشد عثمان والمشاركون في قتله ظلما حتى ينجوا من العقوبة في الدنيا؟

خروج علي بن أبي طالب إلى صفين

استخلف الخليفة الراشد الرابع عبد الله بن عباس على البصرة، وسار منها إلى الكوفة، فتهيأ فيها إلى صفين واستشار الناس. فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم؛ وأشار آخرون بالمسير. فأبى إلا المباشرة بنفسه، فجهز الناس. فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فاستشاره فقال: أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك. قال: إذًا، يا أبا عبد الله، فجهّز الناس. فجاء عمرو فحرّض الناس، وهوّن من جيش علي.([٨٠])

ولما انتهى عليّ إلى الرقة قال لأهلها اجسروا لي جسرا حتى أعبر من هذا المكان إلى الشأم فأبوا. فتركهم وخلّف عليهم الأشتر. فناداهم الأشتر وقال: يا أهل هذا الحصن ألا إني أقسم لكم بالله عز وجل لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم جسرا حتى يعبر لأجردن فيكم السيف ثم لأقتلن الرجال ولأخربن الأرض ولآخذن الأموال. فأقبلوا وجاء علي فنصبوا له الجسر فعبر عليه بالأثقال والرجال ثم أمّر الخليفة الرابع الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر، ثم عبر هو، آخر الناس. ([٨١])

فلما عبر عليٌّ الفرات قدّم زياد بن النضر الحارثي وشريح بن هانئ ومن تحت قيادتهما أمامه نحو معاوية. ولما انتهيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام. فأرسلا إلى علي إنا قد لقيَنَا أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشأم، وقد

---

[٧٧]) الطبري، تاريخ ج٣ : ٦٨- ٧٠.
[٧٨]) سيف،الفتنة ص ١٠٢.
[٧٩]) الطبري، تاريخ ج٣: ٧٠.
[٨٠]) الطبري، تاريخ ج٣: ٧١.
[٨١]) الطبري، تاريخ ج٣: ٧٢.

دعوناهم فلم يجبنا منهم أحد، فمرنا بأمرك. فأرسل علي إلى الأشتر فقال يا مالك. انجد أصحابك فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم. وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع. ويبدو أن مالك الأشتر كان رجلا شجاعا مقداما يعتمد عليه الخليفة الرابع في الملمات ولا يستغني عنه، وإن كان أحد رؤوس الفتنة. وكتب الخليفة إلى زياد: أما بعد فإني قد أمّرت عليكما مالكا، فاسمعا له وأطيعا. فإنه ممن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ولا بطؤه. وقد أمرته بمثل الذي كنت أمرتكما به ألا يبدأ القوم حتى يلقاهم فيدعوهم ويعذر إليهم. وخرج الأشتر حتى قدم على القوم فاتبع ما أمره عليٌّ، وكف عن القتال فلم يزالوا متوافقين، حتى إذا كان عند المساء، حمل عليهم أبو الأعور السلمي فثبتوا له واضطربوا ساعة، ثم إن أهل الشام انصرفوا. ثم خرج إليهم من الغد هاشم بن عتبة الزهري في خيل ورجال وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم.([٨٢])

القتال على الماء:

ثم إن عليا طلب موضعا لعسكره، فلما وجده أمر الناس لينزلوا، وذهب شباب الناس وغلمتهم يستقون فمنعهم أهل الشام، فاقتتل الناس على الماء. وقد كان الأشتر أشار عليه أن يهجم على أهل الشام، حتى يكون الماء تحت سيطرة الخليفة. فكَرِه ذلك عليٌّ، لئلا يكلف على جنده.

ويروي أبو مخنف بأنه لما انتهى جيش الخليفة إلى معاوية وجده قد عسكر في موضع سهل، إلى جانب فرع من فروع الفرات، كان قد اختاره قبل قدوم جيش عليّ. فبحثوا عن فرع للفرات بديلا فلم يجدوا. فأخبروا الخليفة فقال: قاتلوهم عليها، فاقتتلوا على الماء. وأما معاوية فاستشار أصحابه فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ حصروه أربعين صباحا يمنعونه برد الماء. اقتلهم عطشا. وقال له عمرو بن العاص: خل بينهم وبين الماء. فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريان. ثم تمت المصالحة على أن يسقي كل فريق دون أن يتعرض له الفريق الآخر. ([٨٣])

دعاء علي معاوية إلى الطاعة والجماعة

مكث الخليفة الرابع يومين لا يرسل إلى معاوية أحدا ولا يرسل إليه معاوية، ثم إن عليا دعا ثلاثا من أصحابه فقال: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة.([٨٤]) وكان هذا في أول ذي الحجة عام ٣٦. فأتوه وقل أبو عمرة بشير بن عمرو: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك. وإني أنشدك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها. فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟

وعندما انتهى رسل الخليفة كلامهم المبطن بالتهديد وبالتهوين لشأن المطالبة بدم عثمان، غضب معاوية وقال: ليس بيني وبينكم إلا السيف.

ومع قدوم محرم سنة سبع وثلاثين تمت الموادعة بين علي ومعاوية إلى نهاية شهر محرم، وكان الناس يؤملون في انتهائه بالصلح بين الطرفين، حيث تبادل الطرفان الرسل التي تسعى إلى الصلح. فبعث الخليفة عليٌّ ثلاثة، كان منهم ، عدي بن حاتم. وعندما انتهوا إلى معاوية قال له عدي بن حاتم: فإنا أتينا ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا

---

[٨٢]) الطبري، تاريخ ج ٣: ٧٣.
[٨٣]) الطبري، تاريخ ج ٣: ٧٤- ٧٦.
[٨٤]) الطبري، ج٣: ٧٦.

ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين. إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثرا. وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله، عز وجل، بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك. فانته، يا معاوية، لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل. فقال معاوية: كأنك إنما جئت متهددا؟ وتكلم يزيد بن قيس فقال: إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك؛ فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا.

فقال معاوية: فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة. فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها. إن صاحبكم فرّق جماعتنا وآوى من يستحق الثأر ومن قتل خليفتنا. أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة. وفي رواية قال: فإن عليا قطع أرحامنا وآوى قتلة صاحبنا. فقال له شبث أيسرُّك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟ فقال معاوية: وما يمنعني من ذلك؟ والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان، ولكن كنت قاتله بناتل مولى عثمان. ([٨٥]) وهو كلام واضح وصريح، فمعاوية يعلن عن استعداده لمبايعة الخليفة الرابع إذا طبق حد القصاص على قتلة الخليفة الثالث ظلما وعدوانا.

وفي رواية أخرى لأبي مخنف، أن معاوية طلب من رسول له تبليغ الخليفة الرابع: إن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان خليفة مهديا، يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله تعالى، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه. **فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به.** ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فكان رد الخليفة الرابع: إن الله جل ثناؤه بعث محمدا بالحق فأنقذ به من الضلالة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه. ثم استخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر، فأحسنا السيرة، وعدلا في الأمة، **وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما.** وولي عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه. ثم أتاني الناس فقبلت بعد الإلحاح. وسأل رسولا معاوية الخليفة: هل تشهد بأن عثمان رضي الله عنه **قُتل مظلوما؟ فقال لهما: "لا أقول إنه قُتل مظلوما،** ولا إنه قُتل ظالما." قالا: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما، فنحن منه برآء. ثم قاما فانصرفا.([٨٦])

ويستبعد القارئ المنصف هذا القول المنسوب إلى أمير المؤمنين، علي ابن أبي طالب، لأن أحدا ممن عاصر استشهاد الخليفة الثالث، كما كان يشكّ في أنه قُتل مظلوما. والخليفة الرابع نفسه ساعد في إيصال الماء إليه، بعد أن ثبتت براءته، عقب المحاكمة العلنية التي وضع الشهيد عثمان نفسه فيها، ولم يجرؤ أحد – حتى من رؤوس الفتنة- أن يطعن فيها. وأما القول "**وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله** " يُعبِّر –بصراحة- عن العقيدة الشيعية التي تدعي بأن الخلفاء من بعد النبي صلى الله عليه وسلم هم من أهل بيته، وأن أبا بكر، وعمر، وعثمان مغتصبون للولاية.

ومكث الناس، حتى إذا دنا انسلاخ محرم عام ٣٧، أمر عليٌ مناديه أن ينادي: يا أهل الشام، عند غروب الشمس، ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله عز وجل فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء.

والسؤال: أي القرارين أقرب إلى الصواب: أن يطبق الخليفة حد القصاص على مستحقيه، وهو قادر على ذلك إن أراد، فتتم البيعة له ويتحد المسلمون؟ أم إباحة دماء المسلمين،

---

[٨٥]) الطبري، تاريخ ج٣: ٨٠، من رواية أبي مخنف الشيعي. وهي شهادة باستعداد معاوية للمبايعة، إن تم تطبيق حد القتل العمد.
[٨٦]) الطبري، تاريخ ج٣: ٨٠ -٨١ من رواية أبي مخنف الشيعي.

إن لم يبايعوا أولا، ثم ينظر أمير المؤمنين في الأمر الذي قد لا يتم لأن المستحقين للقصاص هم من كبار أعوانه، ويحيط نفسه بهم؟

فأصبح عليٌّ من الغد فرتب جيشه وبعث على خيل أهل الكوفة الأشتر، وعلى رجالة أهل الكوفة عمار بن ياسر...

وأما معاوية فبعث على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري وعلى مقدمته يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلمي. وكان على خيل أهل دمشق، وعمرو بن العاص على خيول أهل الشأم كلها... فخرجوا أول يوم من صفين، وكان يوم الأربعاء عام ٣٧ للهجرة، فاقتتلوا قتالا شديدا جل النهار ثم تراجعوا.

ويروي ابو مخنف بأن عمار ابن ياسر كان ينادي في اليوم الثالث: يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين وظاهر المشركين.([٨٧]) من الواضح أن هذا القول المنسوب إلى عمار، رضي الله عنه، مشكوك فيه لأنه يجعل المطالبين بالقصاص الذي أمر الله به المؤمنين "أعداء لله ولرسوله"، ويجعل الذين يدافعون عن أنفسهم، بالصمود أمام من يهجم عليهم بجيش فيه من يستحقون القصاص "يبغي على المسلمين ويظاهر المشركين"!

ويروي أبو مخنف بأن الخليفة الراشد الرابع حض جيشه فقال: إن الله عز وجل قد دلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، ووعد المجاهدين في سبيله بالمغفرة والمساكن الطيبة في جنة عدن، وأنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص.([٨٨]) وهذا قول مشكوك فيه فحاشاه، أمير المؤمنين، أن يُشبِّه اخوته المسلمين بالكافرين الذين يبادرون المسلمين بالعداوة والقتال، وهو في موقف يبادرهم هو بالقتال ليخضعوا لإمرته. فهو الذي جاء بجيشه إلى الشام.

ويقول ابو مخنف بأن بعض قيادات جيش الخليفة عبروا عن حيرتهم. فمثلا قال أحدهم: إن من الخطأ الجليل أنا صُرفنا إلى قومنا وصُرفوا إلينا. والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا؛ وما هي إلا أجنحتنا نقصها بأسيافنا. فإن نحن لم نؤاس جماعتنا، ولم نناصح صاحبنا كفرنا، وإن نحن فعلنا فعِزَّنا أبحنا. ([٨٩])

ومن زاوية أخرى، فإن بعض أنصار الخليفة يعتقدون بصورة جازمة أن قتالهم لإخوانهم المسلمين وإباحة دمائهم لأنهم رفضوا البيعة إلا بعد القصاص من قتلة الخليفة الثالث، هو مما يرضى رب العالمين. فأحدهم يقول: قد كنت أتمنى الشهادة وأتعرض لها في كل جيش وغارة، فأبى الله عز وجل إلا أن يبلغني هذا اليوم. ألا وإني متعرض لها من ساعتي هذه قد طمعت ألا حُرمها فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله؟ كلكم ذاهب إلى الموت لا محالة، قد تكون من ضربة بالسيف تستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عز وجل وموافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار.

وفي المقابل، كان البعض من أنصار معاوية يعبر عن إيمانه بأن ما يطالب به معاوية هو الحق. يقول أحدهم عندما رأى أصحابه منهزمين: يا معشر قيس أطاعة الشيطان آثر عندكم من طاعة الرحمن. الفرار فيه معصية الله سبحانه وسخطه، والصبر فيه طاعة الله، عز وجل، ورضوانه، أفتختارون سخط الله على رضوانه ومعصيته على طاعته؟ فإنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسبا نفسه. ([٩٠])

---

[٨٧]) الطبرى، تاريخ ج٣: ٨٢- ٨٣.
[٨٨]) الطبري، تاريخ ج٣: ٨٦.
[٨٩]) الطبري، تاريخ ج٣: ٩٠.
[٩٠]) الطبري، تاريخ ج٣: ٩٣.

ويروي أبو مخنف الشيعي بأن الخليفة الراشد الرابع سأل عن مجموعة صادة أمام جيش المطالبين بالقصاص: لمن هذه الرايات؟ فقيل له: رايات ربيعة. **فقال: بل، هي رايات الله عز وجل.**([٩١]) وهذا القول مشكوك في نسبته إلى أمير المؤمنين، لأنه يعني أن الجهة المطالبة بالقصاص لا يمثلون رايات الله، ومنها فريق أم المؤمنين وطلحة والزبير! وأما الفريق الذي يبيح دماء المسلمين لتوحيد المسلمين تحت إمرته هم الذين يحملون رايات الله. فهي كذبة ظاهرة، وحاشاه علي ابن أبي طالب أن يقول ذلك.

مقتل عمار بن ياسر

قال أبو مخنف أن عمار بن ياسر خرج إلى الناس يحضهم فقال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبّة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت. وإني لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين.

يقول أبو مخنف بأن حذيفة نصح من سأله عن الفتنة بأن يكون بالفئة التي فيها ابن سمية، فقد سمع رسول الله يقول بأن الفئة الباغية الناكبة عن الطريق هي التي تقتله. ويقول في قصة أخرى، بأن عمارا يصف معاوية وجيشه بأنهم **"من الذين يبغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قتل مظلوما."**([٩٢]) وكأنه يؤكد القصة الأخرى التي تقول بأن عمار يقول أن سبب قتل الخليفة عثمان أن الخليفة عاقبه على القذف، وأنه لم يقتل عثمان، ولكن لم يسؤه قتله.([٩٣])

والسؤال: هل ثبت غير أن الخليفة الثالث قُتل مظلوما كما سبق بيانه عند التعليق على القول المنسوب إلى الخليفة علي؟ ألم يكن عمارٌ حاضرا للمحاكمة العلنية التي وضع الخليفة الثالث نفسه فيها مكان المتهم.

وتقول رواية أبو مخنف عن مقتل عمار بن ياسر أنه وهاشم ابن عتبة خرجا إلى القتال فلم يرجعا وقُتلا، أي أن من قتله مجهول، مع أنه كان مسئولا عن رجالة أهل الكوفة، وأن من كان أقل منه شأنا وردت تفاصيل قتلهم. وبما أن الفئة التي حرضّت على الخليفة عثمان وقتلته، تآمرت على الصلح، لتنجوا من القصاص، فهي التي ينطبق عليها صفة الفئة الباغية. ومن الواضح أنها سمعت بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "تقتلك الفئة الباغية" فترصّدته واغتالته لإلصاق التهمة بجيش معاوية. ولم يتوقف الأمر إلى الاغتيال، ولكن قامت بتأليف قصة، يتسلل فيها أحدهم إلى جيش معاوية خلسة ليلتقي **بالصدفة** بالقيادات العليا ليحصل على اعتراف بأن جيش المطالبين بالقصاص هم الذين قتلوه. تقول القصة المخترعة بأن المتسلل يقول" فإذا أنا بأربعة يتسايرون: معاوية، وأبو الأعور السلمي، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، فأدخلت فرسي بينهم ".([٩٤])

أما المرجع الشيعي المتخصص في تأليف مناقب الخليفة الرابع فيقول بأن معاوية وعمروا أرسلا خيلا فاختطفوا عمارا. فكان يسمي أهل الشام قتل عمار فتح الفتوح. ويروي عن حنظلة أنه كان جالسا عند معاوية إذ أتاه رجلان يختصمان في رأس عمار كل واحد منهما يقول: أنا قتلته. فقال لهما عبد الله بن عمرو بن العاص ليطب به أحدكما نفسا لصاحبه. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له تقتلك الفئة الباغية.([٩٥]) وكذِبُ هذه القصة واضح للعاقل، لأنه في الوقت الذي يعترف فيه الراوي بأن عمرو ابن العاص يعرف حديث الفئة

---

[٩١]) الطبري، تارييخ ج٣: ٩٦.
[٩٢]) الطبري، تاريخ ج ٣: ٩٨.
[٩٣]) سيف، الفتنة ص ١٣٩؛ الطبري، تاريخ ج٢: ٦٨٠.
[٩٤]) الطبري، تاريخ ج٣: ٩٩.
[٩٥]) العقد الفريد جزء ٤ صفحة ٣١٧.

الباغية التي تقتل عمارا، يدعي بأن أهل الشام سموا قتل عمار فتح الفتوح، وأن اثنين من جيش معاوية ادعى كل واحد منهما أنه هو الذي قتل عمارا.

رفع المصاحف والاحتكام إليها:

وهكذا نشبت المعركة بين الطرفين ودامت تسعة أيام، ابتداء من يوم الأربعاء ٧ صفر عام ٣٧ للهجرة ([٩٦]) وكان كل فريق من الفريقين يغير قيادته يوميا، وكان الأشتر أكثرهم خروجا من جهة الخليفة الرابع، وأبلى بلاء ملحوظا.

وفي اليوم التاسع من المعارك الدامية، في يوم الخميس ١٥ ذي الحجة عام ٣٦هـ، رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف في ذلك الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال نعم. قال نرفع المصاحف ثم نقول ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول بلى ينبغي أن نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم. وإن قالوا بلى نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل. فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، من ثغور أهل الشام بعد أهل الشام ومن ثغور أهل العراق بعد أهل العراق. فلما رأى الناس المصاحف قد رُفعت قالوا نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه.

ويقول أبو مخنف أن عليا قال: عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم. فإن معاوية وعمرو بن العاص... ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة. فقالوا له: ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. فقال لهم: فإني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه. ([٩٧]) ومن الواضح أن هذا الكلام الخطير مكذوب على الخليفة الرابع، لأنه من المستبعد أن يصف أصحاب النبي بأنه ليسوا أصحاب دين ولا قرآن، ولأنه لا يدعي بيعته لتوحيد كلمة المسلمين وردت في الكتاب، فيُجوّز الاستعانة بالمستحقين للقصاص لقتال المطالبين به.

وبعد جدال شديد بين جيش الخليفة الرابع تم قبول القرآن حكما بين الطرفين. فجاء الأشعث بن قيس إلى علي وقال له ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيتَ معاوية فسألته ما يريد؟ قال: ائته، إن شئت فاسأله. فأتاه فقال: يا معاوية لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عز وجل به في كتابه، تبعثون منكم رجلا ترضون به ونبعث منا رجلا. ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يتعدنانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه. فقال له الأشعث بن قيس: هذا الحق. فانصرف إلى علي فأخبره بالذي قال معاوية فقال الناس فإنا قد رضينا وقبلنا. فقال أهل الشأم فإنا: قد اخترنا عمرو بن العاص. فقال الأشعث وأولئك الذين صاروا خوارج فيما بعد، فإنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري. فاعترض الخليفة على ترشيح أبي موسى، ورشح مالك الأشتر، فعلق أحدهم: "وهل سعّر الأرض غير الأشتر؟" فأصر عدد من أنصار الخليفة على أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه. فموقف أبي موسى، منذ البداية هو الاعتزال عن الفتنة، وإن أطاع الخليفة وضمن له بيعة أهل الكوفة، وذلك عملا بأمر النبي الله صلى الله عليه وسلم. فاستقر الأمر على الحكمين المقترحين، وكتبوا بذلك كتابا في ١٣ صفر عام ٣٧هـ يتضمن "إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات ". وحددوا شهر رمضان موعدا، ولهما صلاحية تأخيره،

---

[٩٦]) تاريخ خليفة بن خياط جزء ١ صفحة ١٩١.
[٩٧]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٠١.

وعلى أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل، ومع كل منهما أربعمائة من أصحابه. ومن الطبيعي أن يرفض الأشتر ما ورد في الصلح فهو أحد رؤوس الفتنة، ومن أفسد الصلح، من قبل.

وخرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم فيقرؤونه حتى مر به على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية، فقرأه عليهم فقال عروة: تحكمون في أمر الله عز وجل الرجال؟ لا حكم إلا لله. ([٩٨])

خروج الحرورية على الخليفة:

عندما انصرف علي من صفين خالفت الحرورية وخرجت عليه وآذنوه بالحرب، وقالوا لا حكم إلا لله سبحانه. وكان هذا أول ظهورها. قال أبو مخنف خرج أنصار علي معه إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء. ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون. يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله عز وجل وحكّمتم الرجال. ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا، وفرقتم جماعتنا. فلما دخل عليٌّ الكوفة لم يدخلوا معه، وذهبوا إلى حروراء، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا، ونادى مناديهم إن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر([٩٩])

ولما قدم عليٌّ الكوفة وفارقته الخوارج، وثبَت إليه الشيعة فقالوا: في أعناقنا بيعة ثانية. نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت. فقالت الخوارج استبقتم أنتم وأهل الشأم إلى الكفر كفرسي رهان. وبعث الخليفة علي ابن عباس إليهم فناقشهم وبيّن لهم أن الله في كتابه العزيز حكّم الرجال (المحكمين) فرجع بعضهم. ولما علم عليٌّ مكانة يزيد بن قيس بينهم خرج في الناس حتى دخل إليهم فأتى فسطاط يزيد بن قيس فدخله فتوضأ فيه وصلى ركعتين، وأمّره على إصبهان والري، ثم خرج. ([١٠٠])

اجتماع الحكمين بدومة الجندل:

فلما اجتمع الحكمان بأذرح وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير. ووافى معاوية بأهل الشأم، ولكن أبى الخليفة وأهل العراق أن يوافوا. فاجتمع الحكمان وتكلّما وقال عمرو بن العاص: يا أبا موسى رأيت أول ما تقضي به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم. قال أبو موسى وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشأم قد وفوا وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟ قال: بلى. قال عمرو: اكتبها. فكتبها أبو موسى. قال عمرو يا أبا موسى: أأنت على أن نسمي رجلا يلي أمر هذه الأمة فسمه لي، فإن أقدر على أن أتابعك فلك عليّ أن أتابعك، وإلا فلي عليك أن تتابعني. قال أبو موسى أسمي لك عبد الله بن عمر. وكان ابن عمر فيمن اعتزل. قال عمرو إني أسمي لك معاوية بن أبي سفيان. فلم يبرحا مجلسهما حتى افترقا دون قرار.([١٠١])

ويقول الطبري زعم الواقدي أن اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، حيث بعث علي أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي ومعهم عبد الله بن عباس

---

[٩٨]) الطبري، تاريخ ج٣: ١٠٢-١٠٥.
[٩٩]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٠٥- ١٠٨.
[١٠٠]) الطبري، تاريخ ج٣: ١٠٩- ١١٠.
[١٠١]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٠٦.

يصلي بهم ويلي أمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشأم حتى توافوا بدومة الجندل. وشهد اجتماعهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير. والتقى الحكمان فقال عمرو بن العاص: يا أبا موسى ألست تعلم أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوما؟ قال أشهد. قال الست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى. قال فإن الله عز وجل قال {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا.}([١٠٢]) فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى؟ ثم أثنى على معاوية بما هو أهله. فقال أبو موسى: يا عمرو اتق الله عز وجل فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف، إنما يولاه أهله. ولو كنت([١٠٣]) معطيه أفضل قريش شرفا أعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر، فإني لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين، ولكنك إن شئت أحييا اسم عمر بن الخطاب. وناقش الحكمان البدائل للخلافة، فكان كل منهما يرفض ما يقترحه الآخر.

وفي رواية أخرى، يقول أبو مخنف أن عمرًا وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام يقول: إنك صاحب رسول الله وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم. فقال له عمرو خبرني ما رأيك؟ قال رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا. فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون. فقال: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق. فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبرّ. يا أبا موسى تقدم فتكلم. فتقدم أبو موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية. وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية. ثم تنحى. وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان، والطالب دمه وأحق الناس بمقامه. ([١٠٤])

ومن الواضح أنها قصة مكذوبة، وذلك لأن معاوية لم يكن خليفة، وأبدى استعداده لمبايعة علي إذا نفّذ القصاص على قتلة الخليفة الثالث، أو سلمهم لمعاوية لينفذ فيهم القصاص، بصفته وليا لعثمان. ويظهر أن القصة الحقيقية هي أن الاجتماع انفض دون أن يتفق الحكمان، على رأي واحد. ويشهد النقري الشيعي، بأن معاوية لم يدع الخلافة، حيث يقول " فأصفق أهل الشام على معاوية، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميرا لا يطمع في الخلافة."([١٠٥])

وبعد فشل الحكمين في الوصول إلى اتفاق انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي. وكان إذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور السلمي وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن عليا وابن عباس والأشتر وحسنا وحسينا.([١٠٦])

ومن الواضح أن هذه كذبة اخترعها المتشيعون لعلي ابن أبي طالب، وحاشاه أن يفعل ما يخالف أوامر الله عمدا، وذلك لأسباب منها: ١) يستبعد أن يكون عليٌ جاهلا بعتاب الله لنبيه عندما مكث يلعن بعض المشركين الغادرين، في حادثة الرجيع، بقوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ

---

[١٠٢]) سورة الإسراء: ٣٣.
[١٠٣]) الطبري، تاريخ ج٣: ١١١.
[١٠٤]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١١١- ١١٢.
[١٠٥]) المنقري ج١: ٤٨٢؛ وانظر أبو مخنف في الطبري، تاريخ ج٣: ٨٠.
[١٠٦]) الطبري، تاريخ ج٣: ١١٣.

الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ.}فكيف ومعاوية مسلم يطالب بتنفيذ القصاص الذي أمر الله به؟([١٠٧]) ٢) لم يكن الخليفة عليٌّ غبيا فيُسن لعن خصمه ليشنع عليه خصمه.

ويتبين من قراءة الأحداث أن الله أراد حقن دماء المزيد من دماء المسلمين فألهم عمرو ابن العاص اقتراح الاحتكام إلى كتاب الله، وقد عجز الفريقان عن تحقيق ذلك، لإصرار كل منهما على رأيه. فالخلق يشاؤون ويفعل الله ما يريد. واختار الله، الحكيم العليم، الوقت المناسب. فقد كثر المتشككون في جدوى إسالة المزيد من دماء المسلمين لتوحيد كلمة المسلمين. وكثر المترددون بين طاعة الخليفة المبايع في المدينة والاعتزال في وقت الفتنة، استنادا إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلم. كما أن اتفاقية التحكيم أدت إلى ردة فعل توهن من جيش الخليفة الرابع، بخروج أكثر من عشرة آلاف من أفراد جيشه عليه. وجميعها أسباب ربانية لإيقاف عملية سفك المزيد من دماء المسلمين لتوحيد كلمة المسلمين تحت إمرة الخليفة علي ابن أبي طالب، ولحث القيادات على الموازنة بين المصالح المتضاربة.

ومن عجائب أمر الله أن يأتي السبب الأقوى لحقن المزيد من دماء المسلمين، في صيغة الدعوة إلى الاستمرار في قتال المطالبين بتطبيق القصاص. ووجَّه ظهور الخوارج قوة الخليفة الرابع إلى وجهة شرعية، وهي قتال من يستبيحون دماء الفريقين: الفريق المطالب بوحدة المسلمين، والفريق المطالب بالقصاص. ومن عجائب قدرة الله أن يخرج الخوارج من جيش الخليفة الرابع كما خرج رؤوس الفتنة الذين أفسدوا الصلح بينه وبين أم المؤمنين، من جيشه سابقا، وإن كان سرا في تلك المرة. وأصبح الخوارج خطرا محدقا، بصورة علنية، بجهود الخليفة في توحيد كلمة المسلمين بالسيف. فلم يقتصروا على الانعزال، ولكن هددوا الخليفة نفسه بالقتل، كما قتل بعضهم الخليفة الثالث، من قبل. ومع أن عليا كان حليما في التعامل معهم، فلم يزدهم حلمه إلا شراسة. فقد قال لهم إن لكم عندنا ثلاثا لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا. ومع هذا فإن الخوارج جمعوا كلمتهم وعينوا لهم رئيسا، هو عبد الله بن وهب، وكان ذلك في ١٠ شوال عام ٣٨ للهجرة. ([١٠٨])

وعزم الخليفة علي على استئناف القتال مع المطالبين بالقصاص من أهل الشام، فحرّض على الاجتماع، فلم يستجب الخوارج له، واتهموه قائلين " إنك لم تغضب لربك. إنما غضبت لنفسك." فقال علي في خطبته التي يحث فيها على قتال أهل الشام من رواية أبو مخنف الشيعي: أما بعد فإنه من ترك الجهاد في الله وأدهن في أمره كان على شفا هلكه ، إلا أن يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين.([١٠٩]) ومن الواضح أن هذا القول مكذوب على الخليفة الرابع. فهو أورع من أن يصف أهل الشام الذين يطالبون بتطبيق القصاص بأنهم ممن حاد الله، ويحاولون إطفاء نور الله. فهذا الوصف، إن صدق على أحد الطرفين لا يخرج منه الطرف الآخر.

ورغم حماس الخليفة الرابع لاستئناف جهوده في إخضاع الشام، دون السعي في توفير مطالبهم، لم تكن الاستجابة كما كان يتوقع. وعبّر بعض أنصاره عن اعتراضهم على ترجيح قتال أهل الشام المسلمين على قتال الخوارج الذين يشكلون خطرا على أهليهم وأموالهم. فقال بعضهم لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم ذهبنا إلى ما يريد. ولكن

---

[١٠٧]) سورة آل عمران: ١٢٨.
[١٠٨]) الطبري، تاريخ ج٣: ١١٤- ١١٥.
[١٠٩]) الطبري، تاريخ ج٣: ١١٧.

الخليفة رفض هذا الاقتراح علنا، وحث على السير إلى المطالبين بالقصاص قبل البيعة له. وشاء الله أن يقابل بعض الخوارج الصحابي عبد الله بن خباب فسألوه: أأنت عبد الله بن خباب، صاحب رسول الله؟ قال: نعم. قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثا يحدث به عن رسول الله أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي؟ قال: فإن أدركتم ذلك، فلا تكن يا عبد الله القاتل. فقدموه على ضفة النهر فضربوا عنقه وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها. وفي رواية أخرى، سألوه أيضا: فما تقول في أبي بكر وعمر فأثنى عليهما خيرا. قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقا في أولها وفي آخرها. قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده قال: إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى. وقتلوه، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، ثم قتلوا رسول الخليفة إليهم. وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس فقام إليه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين، علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشأم، وكان منهم الأشعث بن قيس الكندي. فلما رأى إجماع الناس على البدء بالخوارج خرج إليهم. وعندما جاء الخليفة الرابع مقبلا إلى الخوارج بعث إلى أهل النهر: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم. ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتى ألقى أهل الشأم فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خيرٍ مما أنتم عليه من أمركم. فبعثوا إليه فقالوا: كلنا قتَلَتَهُم، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم. (١١٠) ومن العجيب، أن يشاء الله، إن صدقت هذه الرواية، أن يقف الخليفة الرابع موقف أهل الشام، فيقول للخوارج المقطوع بضلالهم مثل ما قاله له أهل الشام المقطوع بإسلامهم.

ولما فرغ الخليفة من أهل النهروان حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم، أي إلى المطالبين بالقصاص للخليفة الثالث. وقال يحثهم: أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدو في جهاده القربة إلى الله. فاعتذر البعض بأنهم غير جاهزين ويحتاجون إلى الاستعداد، وتسللوا إلى منازلهم، إلا قليل، ولم يلق استجابة من أغلبهم. فغضب لذلك وأخذ يعنفهم. ويقول الطبري بأن معركة النهروان مع الخوارج كانت عام ٣٨ للهجرة، وليس كما ذكر أبو مخنف عام ٣٧.(١١١)

مقتل بعض رؤوس الفتنة:

كان محمد ابن أبي بكر، أحد المتهمين بقتل الخليفة عثمان ومثيري الفتنة، واليا لعلي في مصر. فاشتكى أهل مصر منه، فعيّن الخليفة الرابع مالك الأشتر واليا عليها، وهو من رؤوس الفتنة منذ بدايتها والمتآمرين على إفساد الصلح بين الخليفة الرابع وأم المؤمنين ومن معها. غير أن الأشتر قُتل مسموما، قبل أن يصل إلى مصر. (١١٢)

كما سبق بيانه رفض الخليفة الرابع طلب أهل الشام بتسليم المستحقين للقصاص لمعاوية، فهم جزء أساس من جيشه. ثم كان التحكيم الذي انتهى إلى غير اتفاق. فالروايات عن نتيجة التحكيم مشوشة، قد يكون فيها شيء من الحقيقة، وشيء من التأليف. وفي جميع الحالات جاءت النتيجة موهنة لجيش الخليفة، ومساندة لجيش معاوية ولموقفه. فبعد أن كان معاوية مجرد معارض للبيعة حتى يتم القصاص من قتلة الخليفة الثالث، تحوّل مكانه إلى خليفة منافس، إذ بايعه أهل الشأم بالخلافة، فلم يزدد إلا قوة، واختلف الناس بالعراق على علي ابن أبي طالب.

---

(١١٠) الطبري، تاريخ ج٣: ١١٨- ١١٩-١٢٠.
(١١١) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٠٩، ١٢٤.
(١١٢) الطبري، تاريخ ج٣: ١٢٦- ١٢٧.

ولتثبيت قدمه نظر إلى مصر. فعدد سكانها كبير، وخراجها كثير، فجمع مستشاريه فاستشارهم في الاستيلاء عليها. فقالوا له اعزم وأقدم، ونعم الرأي رأيت. واقترح عليه عمرو ابن العاص أن يبعث جيشا كثيفا، وقال له: ابعث عليهم رجلا حازما صارما، تأمنه وتثق به. فيأتي مصر حتى يدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فيظاهره على من بها من عدونا. فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت أن يعين الله بنصرك، وأن تتم مكاتبة أنصار معاوية بمصر، وغيرهم لإقناعهم. فكتب معاوية إلى من كان قد خالف عليا، فوجد تجاوبا منهم فأرسل عمرو ابن العاص واليا على مصر. وقال له عند وداعه: أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق، وبأن تقبل ممن أقبل وأن تعفو عمن أدبر. فإن قبل فبها ونعمت، وإن أبى فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ في الحجة. وادع الناس إلى الصلح والجماعة فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثر الناس عندك.([١١٣])

وعندما وصل عمرو ابن العاص حدود مصر أرسل إلى محمد ابن أبي بكر رسالة ينصحه بالتنحي عن ولاية مصر، وبعث له برسالة معاوية الذي يحذره مما صنعه بالخليفة الراشد عثمان ابن عفان. فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد فقد أتاني كتابك **تذكرني من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك منه.** وجهّز جيشا لمواجهة عمرو ابن العاص، ولكن انتهت محاولاته بهزيمته وتفرق جماعته عنه. فأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر، ولما رأى ذلك محمد خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق، فأوى إليها. وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط. وخرج معاوية بن حديج مع نفر في طلب محمد حتى وجدوه في خربة فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشا، وقتلوه. وفي رواية الواقدي أن محمدا كان مختبئا عند جبلة بن مسروق، ولما أحيط به قاتل حتى قُتل. وكان ذلك في صفر عام ٣٨ للهجرة. وفي هذه السنة قُتل محمد ابن حذيفة الذي رباه الخليفة عثمان يتيما فانقلب عليه وألب عليه. وفي رواية للواقدي أنه قُتل، قبيل ذلك، عام ٣٦ للهجرة، حيث اندس في غار في أرض حوران فاستخرجوه منها وقتلوه. ([١١٤])

ويروي أبو مخنف الشيعي بأن الخبر وصل عليا فوصف عمرو ابن العاص بأنه **عدو الله وولي من عادى الله.** ([١١٥]) وهذا القول مشكوك فيه، فحاشاه علي أن يصف مسلما بهذا الوصف، وكأنه وكيل الله يصنف عباده كما يشاء.

وحاول علي ابن أبي طالب حث أنصاره لنجدة واليه في مصر، فلم يجد استجابة فأخذ يلومهم لوما شديدا. ثم بلغه خبر قتل واليه على مصر، واستيلاء معاوية عليها، فتألم ألما شديدا. ولما قُتل محمد بن أبي بكر بمصر خرج ابن عباس من البصرة إلى علي بالكوفة واستخلف زيادا. وقدم ابن الحضرمي من قبل معاوية فنزل في بني تميم. فاستنجد زياد بعلي ابن أبي طالب فأرسل إليه جارية ابن قدام مع خمسمائة شخص، فتمكنوا من قتل ابن الحضرمي ومن معه. وعندما فرغ عليٌّ من أهل النهروان أعلن البعض الانعزال، وخالفه قوم كثير في رأيه استئناف الجهد لإخضاع أهل الشام لبيعته ، وانتقضت عليه أطرافه وخالفه بنو ناجية، وانتقض أهل الأهواز، وطمع أهل الخراج في كسره، ثم أخرجوا سهل بن حنيف من فارس وكان عامل عليٍّ عليها. فأرسل الخليفة الرابع إليها زيادا فاستردها بجمع كثير، وطيء بهم أهل فارس فأدوا الخراج. ([١١٦])

---

[١١٣]) الطبري، تاريخ ج٣: ١٢٨- ١٣٠.
[١١٤]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٣١- ١٣٣.
[١١٥]) الطبري عن أبو مخنف ج٣: ١٣٤.
[١١٦]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٣٧- ١٤٢.

تفريق معاوية جيوشه في أطراف علي:

قام معاوية في عام ٣٩ للهجرة بتوجيه جيوشه للإحاطة بالمناطق التي تقع تحت سيطرة علي ابن أبي طالب. فوجه النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة (قاعدة) لعلي في ألف رجل. وعندما جاء النعمان لم يبق معه إلا مائة رجل، وفي رواية إلا ثلاثمائة. فأخبر مالك عليا، فحض عليٌّ الناس وأمرهم بالخروج فتثاقلوا. فخطب وقال: يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلّكم انجحر كل إمريء منكم في بيته انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها. المغرور من غررتموه؛ ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء. إنا لله وإنا إليه راجعون. ماذا مُنيت به منكم؟ عُميٌ لا تبصرون، وبكمٌ لا تنطقون؛ وصم لا تستمعون". ويستبعد القارئ المنصف أن يقول أمير المؤمنين هذا الكلام على من ناصروه في معارك كبيرة ضد مخالفيه. فهو ليس بجحود، رضي الله عنه. وهكذا حصلت بعض المعارك الصغيرة بين المناصرين لعلي والمناصرين لمعاوية.([١١٧])

محاولة معاوية السيطرة على المدينة

في عام ٤٠ للهجرة بعث معاوية بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة. وكان عامل علي على المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري، فترك أبو أيوب المدينة إلى الكوفة. ودخل بسر المدينة وصعد منبرها ولم يقاتله بها أحد، وبايعه أهل المدينة، اقتناعا أو خوفا. وكأن ظروف مبايعة الخليفة الرابع يتكرر بصورة أخرى.

ثم مضى بسر إلى اليمن وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملا لعلي، فلما بلغه مسيره تركها إلى الكوفة حتى أتى عليا. واستخلف أحدا على اليمن، فكان مصيره القتل. ثم رجع بسر إلى الشام. وبلغ عليا خبر بسر فوجّه قائدين من قواده بأربعة آلاف، كان أحدهم جارية الذي سار حتى أتى نجران، فحرّق بها، وأخذ ناسا من شيعة عثمان فقتلهم. وفي هذه السنة، أي عام ٤٠ للهجرة جرت بين علي وبين معاوية مكاتبات انتهت بالمهادنة بينهما على وضع الحرب بينهما. ويكون لعلي العراق ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو. وتضاربت القصص حول تاريخ مغادرة ابن عباس البصرة، وسببها، إذ قيل بأنه غادرها في حياة الخليفة الرابع بناء على طلب منه، وقيل أنه لم يبرح البصرة حتى قُتل علي. فشخص إلى الحسن وشهد الصلح بينه وبين معاوية. ([١١٨])

استشهاد الخليفة الراشد الرابع:

استشهد علي بن أبي طالب، على يد ابن ملجم المرادي، وكان ذلك في ١٧ رمضان عام ٤٠، وقيل في ١١ رمضان. وتقول رواية بأن ابن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس. وعابوا على ولاتهم ثم ذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم. واتفقوا على قتل علي ابن أبي طالب، ومعاوية، وعمرو ابن العاص. فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ؛ وقال البرك بن عبد الله أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان؛ وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه. فحاول ابن ملجم قتل علي وضربه ولم يتمكن منه،

---

[١١٧]) الطبري، تاريخ ج٣: ١٤٩-١٥٠.
[١١٨]) الطبري، تاريخ ٣: ١٥٣- ١٥٤.

ولكن عليا مات متأثرا بالسم الموجود في السيف. ويقال أنه استشهد وعمره ابن ثمان وخمسين سنة، وفي رواية كان ابن خمس وستين سنة، وفي رواية ثالثة، كان ثلاثا وستين. وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.([١١٩])

وأما البرك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية، فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بسيفه فوقع السيف في مؤخرة معاوية؛ فأُخذ البرك وقُتل. وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة، فلم يخرج وكان اشتكى بطنه. فأمر خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته، فخرج ليصلي. فشد عليه وهو يظن أنه عمرو ابن العاص فضربه فقتله، فأخذه الناس فانطلقوا به إلى عمرو، يسلمون عليه بالإمرة فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو ابن العاص. قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة. فقال: عمرو ابن العاص: أردتني وأراد الله خارجة، فقدمه عمرو وقتله.([١٢٠])

الخلاصة العامة:

عندما نتتبع المعلومات المتوفرة لدينا عن الفتنة الكبرى نجد أن أقرب المصادر المسجلة كتابة، عن استشهاد الخليفة الراشد الثالث وموقعة الجمل، هو كتاب سيف ابن عمر الأسدي. أما بالنسبة لموقعة صفين، فنجد أن أقربها إلى الحادثة تتسم بالتحيُّز في صياغاتها وفي تفاصيلها. وهو المتوفر، فالطبري اعتمد فيها على روايات أبو مخنف، ولا يقابلها، من حيث القرب، سوى روايات المنقري. وكلاهما من شيعة علي، رضي الله عنه، بدرجات متفاوتة من التطرف. ولهذا كان من الطبيعي أن يتم إغفال بعض الحقائق، وإضافة بعض القصص، وتحريف بعضها لصالح الخليفة الرابع، ولكن أحيانا تهدف إلى التبرئة فتتهم، وتهدف إلى الثناء فتذم. وفي ظل هذه الحقيقة، يجد القارئ نفسه أمام نوعين من التعامل بين الطرفين حسب المصادر المتوفرة:

أولا – يلاحظ أن فريق أم المؤمنين كان موقفه موقف الاحترام لشخصية علي ابن أبي طالب، مع الاعتراض على تأخيره، أو تردده في تطبيق حد القصاص. أما موقف الخليفة الرابع فهو موقف المهاجم لشخصيات معارضيه، يستحقون التهم بالعداوة لله ولرسوله، والافتراء عليهم. ومثاله، القصة التي أوردها المنقري التي تقول بأن أحدا من مناصريه سأله: يا أمير المؤمنين، أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة، بم قتلوا؟ قال عليٌّ: قتلوا شيعتي وعمالي، وقتلوا أخا ربيعة العبدي، رحمة الله عليه، في عصابة من المسلمين، لأنهم قالوا لهم: لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدر كما غدرتم. فوثبوا عليهم فقتلوهم. فسألتهم أن يدفعوا إليّ قتلة إخواني أقتلهم بهم، ثم كتاب الله حكمٌ بيني وبينهم، فأبوا عليّ. فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي، ودماء قريبٍ من ألف رجل من شيعتي، فقتلتهم بهم، أفي شك أنت من ذلك؟"([١٢١])

ثانيا – يلاحظ أن فريق معاوية لم يتجاوز توجيه تهمة عابرة لعليّ بالمساهمة في قتل الخليفة عثمان. ويمثله قول معاوية لعلي رضي الله عنهما:" وقد ذُكِر لي أنك تتنصّل من دمه، فإن كنت صادقا فأمكِنّا من قتَلَتِه، نقتلهم به، ونحن أسرع الناس إليك، وإلا فإنه ليس لك ولا لأصحابك إلا السيف."([١٢٢])

وأمام هذه الأحداث المروعة للفتنة الكبرى، لا يملك المسلم عند سماع أخبارها إلا أن يطرح بعض الأسئلة على القرارات البشرية الاجتهادية للصحابة، مع إيمانه الكامل بشرعية منطلقاتها، واعتقاده بصدق نوايا أصحابها، وذلك لكي يعتبر بها وبما نتج عنها، ومنها:

---

[١١٩]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٥٥- ١٦٠

[١٢٠]) الطبري، تاريخ ج ٣: ١٥٩.

[١٢١]) المنقري ج١: ٥.

[١٢٢]) المنقري ج١: ٨٧.

أولا – أغارت الفئة الباغية فجأة على عاصمة الخلافة الإسلامية، وسيطرت على الأمور العامة فيها، فانقسمت قرارات أهل المدينة إلى:

١ – قرار الأقلية التي ساندت رأي الغزاة ورؤوس الفتنة.

٢- قرار الأقلية التي رأت وجوب الدفاع عن الخليفة والنظام.

٣- قرار الأغلبية التي اتخذت موقفا محايدا أو سلبيا.

والسؤال: أي قرارات أهل المدينة كان أقرب إلى الصواب؟

ثانيا. وجد خليفة المسلمين نفسه في موقف لم يصل إليه المساندون له من الأمصار المختلفة بعد، ووقفت فيه أغلبية أهل المدينة موقفا سلبيا، وخيّرته الفئة الباغية بين أن يخلع نفسه من الخلافة أو القتل، فكان عليه أن يختار بين قرارين:

١ – رفض التنازل بالجبر حتى لا يسن سنة سيئة وهي خلع الخليفة، لأسباب ترفضها المحاكمة العلنية، ولاسيما إذا أثبت جدارته خلال اثني عشر عاما، حافظ فيها على وحدة المسلمين، مع احتمال إباحة دماء قلة من المسلمين، وقفوا بإخلاص لحماية الخليفة والنظام.

٢ - رفض التنازل عن الخلافة بالجبر حتى لا يسن سنة سيئة وهي خلع الخليفة، بدون أسباب موجبة، والحرص على تجنب سفك دم أحد من المسلمين القلة الذين يرون أن الدفاع عن الخليفة واجب، وإن كان على حساب مصيره الشخصي، أي يأمر هذه القلة بعدم الدفاع عنه.

والسؤال: أي القرارين المتوفرين للخليفة الراشد الثالث كان أقرب إلى الصواب؟

ثالثا – اقترح المغيرة وابن عباس على الخليفة الرابع إبقاء ولاة الخليفة الثالث في مواقعهم حتى تستقر الأمور له، فيفعل ما يراه مناسبا. وقرر الخليفة الرابع البدء في تغيير الولاة، قبل استقرار الأمور، وهذا مع أن بعض الولاة وأنصارهم يتهمون عليا بالتقصير في الدفاع عن الخليفة الثالث المقتول ظلما وعدوانا.

والسؤال: أي القرارين كان أقرب إلى الصواب؟

رابعا – اقترح طلحة والزبير الاستنجاد بأهل البصرة والكوفة لتخليص المدينة والخليفة الرابع من تسلط الفئة الغازية على القرارات السياسية في العاصمة الإسلامية. فقرر الخليفة الرابع عدم الاستنجاد.

والسؤال: أي القرارين كان أقرب إلى الصواب؟

خامسا – كانت هناك فرصة لبذل الجهد في تطبيق القصاص على المستحقين له، وإن كان بصورة متأنية ومتدرجة. ولكن الخليفة الرابع قرر تأجيل القصاص على مستحقيه، والاستنصار بهم وحمايتهم تحت رايته، لإباحة دم المسلمين الذين يرفضون الإقرار بخلافته، إلا بشرط تنفيذ حد القصاص.

والسؤال: أي القرارين كان أقرب إلى الصواب؟

سادسا – كانت هناك فرصة للموازنة بين هدف توحيد المسلمين والواقع، أي الموازنة بين المصالح المتعارضة، كما فعلت أم المؤمنين وطلحة والزبير، بالنسبة لأولوية القصاص عندهم. وفي المقابل كان هناك قرار الاندفاع في توحيد المسلمين تحت امرته، رضي الله عنه، وإن كان بالسيف، وإباحة دماء المسلمين المطالبين بالقصاص، مع وجود فرصة لتنفيذ القصاص في المستحقين له.

والسؤال: أي القرارين كان أقرب إلى الصواب؟

سابعا – كان معاوية في موقع صعب. فالفئة الباغية لا تزال عنصرا مهما في جيش الخليفة عليّ، أي لديهم فرصة سانحة لإفساد أي صلح ينتهي باتفاق المسلمين على تطبيق

القصاص عليهم. وموقعة الجمل التي ذهب ضحيتها عشرة آلاف مسلم ليست بعيدة. فلم يكن أمام معاوية إلا أحد اثنين:

١- الصمود على شرطه للمبايعة، أي أن يقتص الخليفة من المستحقين للقصاص أو يسلمهم له، ثم يبايع.

٢- التنازل عن شرط تطبيق القصاص على مستحقيه والموافقة على البيعة، وما لحق بجهود الصلح وبجيش أم المؤمنين بسبب مكانة المستحقين للقصاص في جيش الخليفة عليٍّ لا يزال عالقا في الأذهان. كما أن احتمال انقسام المطالبين بالقصاص أمر متوقع، قياسا على ما حصل لأنصار علي بن أبي طالب، فيؤدي، حتما، إلى المزيد من التفرق بين المسلمين، بدلا من جمع كلمتهم، ويؤدي إلى سن سنة فرض السلطة بالسيف، وإن كان المعارضون معهم حق شرعي، ولا يقلون عن نصف الأمة.

والسؤال: أي القرارين كان أقرب إلى الصواب بالنسبة لمعاوية، للحفاظ على هيبة الإسلام ومصلحة الأمة الإسلامية؟

واسأل الله أن يوفق المخلصين للحق إلى الإجابات الصائبة، وأن يحفظ المسلمين في كل زمان ومكان من التورط في الأخطاء الاجتهادية التي وقعت، فنتج عنها سفك دماء آلاف المسلمين على أيدي مسلمين.

د. سعيد صيني ٣٠ محرم ١٤٣٨هـ الموقع www.saeedsieny.net